دولة فلسطين

دار الإفتاء الفلسطينية

الرسول الأسوة

محمد

صلى الله عليه وسلم

إعداد: الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

رئيس مجلس الإفتاء الأعلى

الجزء الخامس عشر

القدس

1444هـ - 2022م

هدية

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

القدس

1444هـ - 2022م

إعداد

الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

مراجعة

الشيخ إبراهيم عوض الله / نائب المفتي العام

مفتي محافظة رام الله والبيرة

فريق العمل

منسق أعمال الفريق	أ. مصطفى أعرج
تصميم	يوسف تيسير
تدقيق لغوي	هالة عقل - إيمان تايه
تدقيق شرعي	نجود بدران - روان الشيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد؛

فدار الإفتاء الفلسطينية تتبرى لنشر تعاليم الدين الإسلام الحنيف، وسنة رسولنا الأكرم، صلى الله عليه وسلم، ويسرها أن تهدي لقرائها الأعزاء الجزء الخامس عشر من كتاب (الرسول الأسوة محمد، صلى الله عليه وسلم)، الذي يعرض ما تيسر من هدي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، وسيرته الطاهرة، بطريقة ميسرة، عمادها بساطة العرض، ووضوح الفكرة، ودقة المعلومة.

ويضم هذا الإصدار ما يربو عن خمسين مقالاً، سبق نشرها في زاوية الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، ضمن صفحة جريدة القدس الدينية التي تنشر كل يوم جمعة، وتتطرقت هذه المقالات إلى موضوعات عديدة، منها: عبادات، ومعاملات، وتفسير، وسيرة نبوية، والمسرى، وأخلاق وقيم.

وتأسياً بهدي الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، القائل: (لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ)[*]، يسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل الطيب، من موظفي دار الإفتاء الفلسطينية، وصحيفة القدس، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بعملهم المسلمين، كما أسأله عز وجل أن يديم دار الإفتاء الفلسطينية منهلاً للعلم والخير والهداية، إنه الموفق إلى سبيل الرشاد.

وأخيراً نؤكد على أن ما أصبنا به في هذا الكتاب وغيره من الأعمال، فبنعمة من الله وفضل، وما أخطأنا فمن عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ محمد أحمد حسين

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

خطيب المسجد الأقصى المبارك

1444هـ - 2022م

* سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، وصححه الألباني.

الفصل الأول / عبادات

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يربط أجر الصائم بمواعثه	6
.2	يوثق الصلة بين الصوم والسلوك	9
.3	يضبط أوقات الصائمين	12
.4	يشترط الإخلاص لنيل ثواب قيام ليلة القدر العظيمة	15
.5	يبين فضل إتباع رمضان بصيام ست من شوال	19
.6	ضحى بكبشين أملحين أقرنين	22
.7	يشدد على منع الاعتداء على الأموات وقبورهم	26

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
يربط أجر الصائم ببواعثه

عن أبي سَعِيدٍ الخدري، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من صَامَ يَوْمًا في سَبِيلِ اللَّهِ بَعَّدَ الله وَجْهَهُ عن النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا)[1]

يحل على المسلمين الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن، وفرض صيامه على من شهده، مصداقاً لقوله عز وجل: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى للنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[2]

معنى الصوم:

الصوم في اللغة: الإمساك عما تنزع إليه النفس، وقيل: هو الإمساك عن الشيء مطلقاً، ومنه صامت الريح، إذا أمسكت عن الهبوب، والفرس إذا أمسكت عن العدو.[3]

وكل ممسك عن حركة، أو عمل، أو طعام أو شراب، فهو صائم في أصل اللسان.[4]

فالصوم أصله في اللغة الإمساك مطلقاً، ثم استعمل شرعاً في الإمساك عن الطعام والشراب.[5]

فالصيام في الشرع إمساك عن الطعام والشراب، مقترنة به قرائن، من مراعاة أوقات وغير ذلك.[6]

وقيل: هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع، مع النية في وقت مخصوص.[7]

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصوم في سبيل الله.
2. البقرة: 185.
3. تفسير أبي السعود: 1 /198.
4. التمهيد لابن عبد البر: 19/ 53.
5. التسهيل لعلوم التنزيل: 1 /22.
6. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 1/ 250.
7. تفسير البغوي: 1/ 148.

المطلوب لمباعدة وجه الصائم عن النار:

حسب حديث أبي سعيد المثبت نصه آنفاً، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وعد من صام يوماً في سبيل الله أن يُبَعِّد وجهه عن النار، فهذا المخرج يرتكز إلى مدخلين، أحدهما فعل الصيام، وثانيهما، أن يقع الصيام في منظومة سبيل الله، أي يقصد منه العمل بأمر الله، ونيل رضاه سبحانه.

وهذه المعادلة العامة غير محصورة بالصيام، فيشترط للجزاء الحسن على الأعمال المشروعة أو المطلوبة، أن تؤدى على الوجه المشروع، وأن ينطلق أداؤها من بواعث صادقة ومخلصة لرب العالمين، الذي يعلم النوايا، ولا تخفى عليه خافية.

وحسب وعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، فإن جزاء صوم يوم تطوعاً انطلاقاً من نية مخلصة لله، يفضي إلى أن يبعد الله وجه صائمه عن النار سبعين خريفاً.

جاء في فيض القدير: أن من صام يوماً لله ولوجهه، أو في الغزو أو الحج، (بَعّد الله وجهه) أي ذاته، والعرب تقول وجه الطريق، تريد به عينه، (عن النار)؛ أي نجاه منها، أو عجل إخراجه منها قبل أوان الاستحقاق، عبر عنه بطريق التمثيل ليكون أبلغ؛ لأن من كان مبعداً عن عدوه بهذا القدر لا يصل إليه ألبتة، (سبعين خريفاً) أي سنة؛ أي نجاه وباعده عنها مسافة تقطع في سبعين سنة، إذ كلما مر خريف انقضت سنة، قيل: لأنه آخر فصولها الأربعة، فهو من إطلاق اسم البعض على الكل، وذكر الخريف من ذكر الجزء وإرادة الكل، وخصه دون غيره من الفصول؛ لأنه وقت بلوغ الثمار، وحصول سعة العيش، وذلك لأنه جمع بين تحمل مشقة الصوم، ومشقة الغزو، فاستحق هذا التشريف، وذكر السبعين على عادة العرب في التكثير، لكن هذا مقيد في الغزو بما إذا لم يضعفه الصوم عن القتال، وإلا ففطره أفضل من صومه. [*]

* فيض القدير: 6/ 161 - 162.

إخلاص النية أساس القبول:

عن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى، فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ لدُنْيَا يُصِيبُهَا، أو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه) [1]

إخلاص النية لله مطلب لقبول العبادات، والمثوبة عليها، فهي مرهونة به، والرسول، صلى الله عليه وسلم، ضرب في حديثه الشريف هذا مثالاً تطبيقياً للعمل الذي يكون باعثه الإخلاص لله من خلافه، بالمهاجر الذي إن هاجر لله قبلت هجرته، وإن كان له هدف آخر منها، فهجرته تكون لذاك الهدف، وليست لله، ومثل الهجرة الأعمال كلها، كالصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما إلى ذلك من الأعمال التي يشترط لقبولها انطلاقها من بواعث إيمانية، وصفاء سريرة، تتحدد في إخلاص النية بها لله دون سواه.

الصيام والقيام إيماناً واحتساباً:

بناء على ما تقدم؛ يسهل فهم اشتراط الإيمان والاحتساب لقبول الصيام والقيام، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ) [2]، وقوله الآخر بشأن قيام رمضان: (من قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ)[3]

هدانا الله لحسن التقرب إليه، وإخلاص النوايا لجلاله العظيم، والعمل بكتابه الكريم، والاقتداء بسنة خاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى.
2. صحيح البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب فضل ليلة القدر.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
يوثق الصلة بين الصوم والسلوك

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[1]

هذا الحديث الشريف من أوضح الأدلة على الربط الوثيق بين العبادة وسلوك العابدين، والمقصود منه ليس الأمر بأن يدع صاحب قول الزور، والعامل به صيامه، وإنما معناه التحذير من قول الزور، وما ذكر معه، وأما قوله: (فليس لله حاجة) فمعناه ليس لله إرادة في صيامه، فوضع الحاجة موضع الإرادة، وهو مجاز عن عدم قبول الصوم.[2] فمن اغتاب، أو شهد زوراً أو منكراً يؤمر باجتناب ذلك، ليتم له أجر صومه.[3]

نقاء سلوك الصائم:

لا يقف الربط بين سلوك الصائم وعبادته على ما تضمنه الحديث أعلاه، بل الأدلة بالخصوص كثيرة، منها ما جاء في الحديث القدسي أن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: قال الله: (كُلُّ عَمَلِ ابن آدَمَ له إلا الصِّيَامَ، فإنه لي وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وإذا كان يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أو قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إني امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ من رِيحِ المِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إذا أَفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ)[4]

فهذا الحديث يربط الصيام بسلوك الصائم، من خلال وصف الصيام بجُنة - بضم الجيم - ومعناه سترة، ومانع من الرفث والآثام، ومانع أيضاً من النار، ومنه المجن، وهو الترس، ومنه الجن لاستتارهم.[5]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.
2. فتح الباري: 4/ 117، و10 /474
3. التمهيد لابن عبد البر: 19 /56
4. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.
5. صحيح مسلم بشرح النووي: 8 /30 - 31.

ومن تعليل تفسير الجُنة بالوقاية والسترة، قيل: من المعاصي؛ لأنه يكسر الشهوة ويضعفها، ولذا قيل: إنه لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وقيل: جُنة من النار، وبه جزم ابن عبد البر؛ لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بها.[1]

ويحث هذا الحديث أيضاً الصائم على أن ينقي سلوكه من الرفث والصخب، والرفث هنا الكلام القبيح، والتشاتم والخنا والتلاعن، ونحو ذلك من قبيح الكلام، الذي هو سلاح اللئام، ومنه اللغو كله، والباطل والزور.[2]

وحتى والصائم يواجه سلوكاً شائناً من مخالطيه، ينبغي له أن يراعي كونه صائماً، فيمنع نفسه عن الرد على الإساءة بمثلها، وإنما يرد في مثل هذا الحال بعبارة: (إِنِي امْرُؤٌ صَائِمٌ) بما تعنيه هذه العبارة من دلالة على أثر الصيام الواضح في تهذيب سلوك الصائم.

الصوم عن الكلام والحلف:

الصوم سلاح يتمترس به صاحبه في ظروف وأحوال عدة، فمريم، عليها السلام، لجأت إلى الصوم عن الكلام، بعد حملها بعيسى، عليه السلام، من غير نكاح، بقدرة الله عز وجل، وما كانت لديها حجة ظاهرة تقنع من يراها بهذه الوضعية؛ لأن ما جرى يفوق طاقة إدراك البشر، وعن نصحها باللجوء إلى الصوم، يقول تعالى: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً}[3]

ومعنى نذرها له صوماً؛ أي صمتاً عن الكلام، وقيل يعني الصيام؛ لأن من شرطه في شريعتهم الصمت، وإنما أمرت بالصمت صيانة لها عن الكلام مع المتهمين لها.[4]

فالصوم عن الكلام يخدم في ظروف معينة أهدافاً سلوكية وأخلاقية نبيلة، وتتماشى مع هذا قواعد أخلاقية أرساها الرسول، صلى الله عليه وسلم، منها ما تضمنه قوله: (وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ)[5]، وقوله الخاص بالحلف: (من كان حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أو لِيَصْمُتْ)[6]

1. شرح الزرقاني: 2/ 262.
2. التمهيد لابن عبد البر: 19 /54.
3. مريم:26.
4. التسهيل لعلوم التنزيل 3 /4.
5. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره.
6. صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف.

الاستعانة بالصوم لضبط النفس وتهذيب السلوك:

من ميادين استخدام سلاح الصوم في ضبط الغريزة، وكبح جماحها، النصح به لمن لم يستطع باءة الزواج، فعن عَلْقَمَةَ قال: بَيْنَا أنا أَمْشِي مع عبد اللَّهِ، رضي الله عنه، فقال: كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: (من اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فإنه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لم يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فإنه له وِجَاءٌ) [1]

يقول ابن حجر في معنى (وِجَاءٌ) بكسر الواو، وهو رض الخِصْيتَين، وقيل رَضُّ عروقهما، ومن يفعل به ذلك تنقطع شهوته، ومقتضاه أن الصوم قامع لشهوة النكاح، واستشكل بأن الصوم يزيد في تهييج الحرارة، وذلك مما يثير الشهوة، لكن ذلك إنما يقع في مبدأ الأمر، فإذا تمادى عليه واعتاده سكن ذلك، والله أعلم. [2]

مما سبق تظهر صلة الصيام في تهذيب السلوك وضبطه، فهو يتعارض مع السلوك المنحرف أو الهابط، فالصائم لا يرفث ولا يصخب، ويرد على المسيء إليه بأدب جم، مما يعني لزوم التخلي عن مثالب السلوك لمن أراد لصيامه القبول، ومن ناحية أخرى فإن للصيام دوراً مهماً يؤديه في الوقاية من آفات السلوك، ظهر ذلك جلياً في الحث على الصيام لمن لم يستطع الزواج، وفي اللجوء إلى الصوم عن الكلام عند مواجهة المهاترات وعقم الجدال.

سائلين الله أن يوفقنا لصيام شهره، على الوجه الذي يرضيه سبحانه، وأن يتقبل منا الصيام والصلاة والقيام، وأن يحشرنا مع نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة.
2. فتح الباري: 4/ 119.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يضبط أوقات الصائمين

عن عَائِشَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قال: (إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حتى يُؤَذِّنَ ابن أُمِّ مَكْتُومٍ) [1]

الصيام مدرسة يكتسب الصائمون منها دروساً في القيم والعادات والأخلاق النبيلة، ومن ذلك درس احترام المواعيد والتقيد بها، فكم يعاني الناس من تجاهل الموعد، والتهاون في المواعيد، فتكون دعوة للبدء باحتفال، أو عقد لقاء، أو اجتماع في الساعة كذا، فيتأخر التنفيذ سواء بسبب من الجهة الداعية، أو من المدعوين، إلى ما بعد الموعد بوقت قصير أو طويل، وتنتظر أحياناً ساعة أو أكثر عن الموعد المحدد، وغالباً لا يكون السبب قاهراً، وإنما إهمال في التحضير والاستعداد، أو استهانة بالدعوة والمدعوين إليها، وفي عبادة الصيام دروس عملية لحفظ الموعد، واحترام الوقت، والالتزام بذلك واجب، وليس تطوعياً أو مزاجياً.

بداية يوم الصيام ونهايته:

نهار الصيام محدد ببداية ونهاية، فهو يبدأ ببزوغ فجر اليوم، وينتهي بغروب شمس نهاره، وقد نبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين في حديث عائشة، رضي الله عنها، أعلاه، إلى الأذان الذي كان يعلن به عن بداية نهار الصيام، وكان وقتها يرفعه الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم، ويسبقه الصحابي بلال بن رباح بأذان تنبيهي لقرب أذان الفجر، الذي اصطلح على تسميته بأذان الإمساك، فأراد صلى الله عليه وسلم، أن ينبه بأن الأذان الأول الذي يسبق أذان الفجر يباح بعده الأكل والشرب، حتى يرفع أذان الفجر الذي يلزم به الإمساك عن المفطرات، ويدخل به كذلك وقت صلاة الفجر، وما جاء في الحديث أعلاه هو تنفيذ لأمر الله عز وجل، المتضمن في قوله: {...وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...}. [2]

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان قبل الفجر.
2. البقرة: 187.

فمسألة الموعد الدقيق مرتبطة جذرياً بصحة العبادة، والله أشار لذلك في الآيات القرآنية الكريمة التي بينت فرض الصيام وبعض أحكامه، فحدد الصيام بأيام معدودات، في شهر محدد، وألزم من يفطر منها بقضاء في أيام أُخر، فقال عز وجل: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[1]

احترام المواعيد في العبادات:

لقد عني القرآن الكريم بالزمن، فبعض السور القرآنية تتعلق أسماؤها وأوائل ألفاظها بالزمن، ومن ذلك سور الضحى والفجر والعصر، والمتدبر في العبادات جميعها، يجد تحديداً للمواقيت فيها والمواعيد اللازمة لها، فبالإضافة إلى ما تمت الإشارة إليه من مواعيد الصيام كشهر وأيام، وساعات، فقد فرضت الصلاة عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً، مصداقاً لقوله عز وجل: {... إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً}[2]، وكل صلاة لها وقت بداية وآخر للنهاية، شمل بعض ذلك قوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً}[3] والزكاة محدد وجوبها بالحول، ووقت الحصاد، فيقول تعالى: {...كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ...}[4]، والحج محدد بأشهر معلومات وأيام معدودات، وعن هذا يقول عز وجل: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ }[5]، ويقول تعالى: {لِيَشْهَدُوا

1. البقرة: 183 - 185.
2. النساء:103.
3. الإسراء:78.
4. الأنعام:141.
5. البقرة:197.

مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ...} [1]

ويقول تعالى: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [2]

الالتزام بالموعد:

التقيد بالموعد يتماشى مع روح الإسلام وقيمه، ومن العجب أن تصبح هذه السمة من خواص كثير من غير المسلمين، وأن يتجاهلها بعض المسلمين، حتى صار يردد في بعض مناسبات التهاون بالمواعيد بأنها وعود عرب، وهذا مما يؤسف له، ويندى له الجبين.

حالة الاضطرار عن التقصير في التقيد بالمواعيد، قد تحدث، لكن في ظروف استثنائية وطارئة، ويرفض أن يكون ذلك ديدناً، فهذا عيب قبيح، وخلل مرفوض، ومن أمارات مراعاة التقيد بالمواعيد واحترامها، الاعتذار عن الخلل الذي يقع في هذا الجانب، وقد وصل بوزير في إحدى الدول الأجنبية أن قدم استقالته من منصبه لتخلفه دقائقَ عن موعد استجواب أمام البرلمان، فكانت الاستقالة مقرونة بالاعتذار، في دلالة واضحة على الاهتمام بالوقت والموعد، واستقباح التقصير في ذلك.

والإسلام يعد خلف الوعد، من صفات المنافقين، فعن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو، رضي الله عنهما، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (أَرْبَعُ خِلَالٍ من كُنَّ فيه كان مُنَافِقًا خَالِصًا، من إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذا خَاصَمَ فَجَرَ، وَمَنْ كانت فيه خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ من النِّفَاقِ حتى يَدَعَهَا) [3]

أجارنا الله من النفاق وأهله، وأعاننا سبحانه على حسن طاعته، والتقيد بمواعيدنا، والتأسي بنبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الحج: 28.
2. البقرة:203.
3. صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
يشترط الإخلاص لنيل ثواب
قيام ليلة القدر العظيمة

عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ)[*]

الله جل في علاه فضل زماناً على آخر، وشمل ذلك أشهراً وأياماً وساعات، ففضل الأشهر الحرم، وفضل شهر رمضان، ويوم عرفة، والأيام المعدودات والمعلومات، ويوم الجمعة، وساعة فيه، والليالي العشر، ومن الليالي المتميزة بالفضل الرباني ليلة القدر، التي فاقت في الفضل ألف شهر، ووعد قائمها بالغفران، ونحن على أعتاب وداع شهر رمضان المبارك، الذي تتحرى ليلة القدر في ليالي عشره الأخيرة، يحسن التذكير بفضل هذه الليلة المباركة، والتشجيع على إقامتها بإخلاص، على الوجه الذي يرضيه سبحانه.

اشتراط الإيمان والاحتساب لمثوبة قائم ليلة القدر:

في الحديث أعلاه يعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً بأن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه، وقد تعددت الروايات المبينة لفضل قيام ليلة القدر في الصحيحين، فتقدم في بعضها ذكر ليلة القدر على الصيام، وكان في بعضها العكس، لكنها جميعاً تجمع على وعد الصائم والمقيم إيماناً واحتساباً بغفران ما تقدم من ذنبه، واللافت للأنظار تكرار شرط الإيمان والاحتساب لتحقق هذا الوعد، فما المقصود بهذا الشرط؟ وما أهميته في الصيام والقيام؟

يلخص المقصود بالإيمان والاحتساب الإخلاص لله، فيلزم لقبول الصيام والقيام

* صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونيةً.

تجردهما من التلبس بالرياء، ومن أي معان تخرج عن التجرد لله وحده، فالله يرفض أن يشرك معه غيره في مقاصد الأعمال، فرسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ، من عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[1]، وقال صلى الله عليه وسلم: (من سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي الله بِهِ)[2]

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (من سَمَّعَ) بتشديد الميم، من التسميع، وهو التشهير، وإزالة الخمول بنشر الذكر، وقال الخطابي: أي عمل عملاً على غير إخلاص، وإنما يريد أن يراه الناس، ويسمعوه، جوزي على ذلك بأن يشهره الله تعالى ويفضحه، ويظهر ما كان يبطنه، وقيل إن قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يرد به وجه الله تعالى، فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له في الآخرة، وقوله: (ومن يرائي)، أي من يرائي بعمله الناس، (يرائي الله به)؛ أي يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم، لا لوجهه، فاستحق سخط الله عليه، وفيه من المشاكلة ما لا يخفى.[3]

وذم الله المرائين، مبيناً أن الرياء من صفات المنافقين، فقال عز وجل: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآءونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً}[4]، وفي سورة الماعون ذم آخر لهم، حيث يقول جل شأنه: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ*الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} [5]

والله أمر بالإخلاص لجلاله سبحانه في العبادات، فقال عز وجل: {... وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}(6)، وقال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء ...}[7]

---

1. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة.
3. عمدة القاري: 23 /86 - 87.
4. النساء: 142.
5 الماعون: 4 - 7.
6. الأعراف:29.
7. البينة:5.

وكـرر سـبحانه في خمـس آيـات مـن سـورة الصافـات الثنـاء عـلى عبـاده المخلصـين، فقـال تعـالى: {إِلَّا عِبَـادَ اللَّـهِ الْمُخْلَصِـينَ} (الصافـات: 40، و74، و128، و160، 169) وتكـرر مثـل هـذا الثنـاء في سـورة ص في الآيـة (83).

المتدبـر في هـذه العينـة مـن الآيـات القرآنيـة، الـتي تثـني عـلى الإخـلاص وأهلـه، وتـذم الريـاء وأهلـه، يجـد المبتغـى مـن اشـتراط الإيمـان والاحتسـاب للمثوبـة عـلى الصيـام والقيـام، وقيـام ليلـة القـدر، حسـب الثابـت في الأحاديـث الصحيحـة بالخصـوص.

عظمة ليلة القدر:

الأدلـة عـلى عظمـة ليلـة القـدر وقدرهـا نزلـت في آيـات القـرآن الكريـم، فهـي خـير مـن ألـف شـهر، حسـب المبـين في السـورة القرآنيـة المسـماة بهـا، حيـث يقـول عـز وجـل: {إِنَّـا أَنزَلْنَـاهُ فِي لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ *وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا لَيْلَـةُ الْقَـدْرِ* لَيْلَـةُ الْقَـدْرِ خَـيْرٌ مِّـنْ أَلْـفِ شَـهْرٍ* تَـنَزَّلُ الْمَلَائِكَـةُ وَالـرُّوحُ فِيهَـا بِـإِذْنِ رَبِّهِـم مِّـن كُلِّ أَمْـرٍ* سَـلَامٌ هِـيَ حَـتَّى مَطْلَـعِ الْفَجْـرِ}[1]

ومعـنى ليلـة القـدر، ليلـة تقديـر الأمـور وقضائهـا، وقيـل: سـميت بذلـك لخطرهـا وشرفهـا عـلى سـائر الليـالي.[2]

ومعـنى كونهـا خـير مـن ألـف شـهر، أن مـن قامهـا كتـب اللـه لـه أجـر العبـادة في ألـف شـهر، قـال بعضهـم يعـني: في ألـف شـهر ليـس فيهـا ليلـة القـدر.[3]وفي سـورة الدخـان وصفهـا اللـه بالمباركـة، فقـال جـل ذكـره: {إِنَّـا أَنزَلْنَـاهُ فِي لَيْلَـةٍ مُّبَارَكَـةٍ إِنَّـا كُنَّـا مُنذِرِيـنَ* فِيهَـا يُفْـرَقُ كُلُّ أَمْـرٍ حَكِيـمٍ}[4]

جاء في التسـهيل لعلوم التنزيل، أن المراد بقوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ} يعني ليلة القـدر مـن رمضـان، وكيفيـة إنزالـه فيها، أنـه أُنزل إلى السـماء الدنيـا جملة واحـدة، ثم نزل بـه جبريل

1. سورة القدر.
2. الكشاف: 4 /786.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 4 /210.
4. الدخان:3 - 4.

على النبي، صلى الله عليه وسلم، شيئاً بعد شيء، وقيل: معناه أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر. ومعنى {يُفْرَقُ} يفصل ويخلص، والأمر الحكيم أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم في ذلك العام، نسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر؛ ليتمثل الملائكة ذلك بطول السنة القابلة. (*)

راجين الله جل في علاه أن ييسر لنا قيام ليلة القدر إيماناً واحتساباً لوجهه الكريم، وأن يغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وما تأخر، وصلى الله وسلم، وبارك على نبينا محمد، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 34.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يبين فضل إتباع رمضان بصيام ست من شوال

عن رَسُول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا من شَوَّالٍ، كان كَصِيَامِ الدَّهْرِ) [1] يواصل العابدون بعد الانتهاء من صيام شهر رمضان المبارك، طريقهم في التقرب إلى الله بعبادة الصيام وغيرها، حباً لجلاله، وطمعاً في نيل رضاه سبحانه، والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض.

حكم صيام الست من شوال:

في الحديث أعلاه، يفصح النبي، صلى الله عليه وسلم، عن جزاء المتقربين لله بصيام ست أيام من شهر شوال الذي يلي رمضان، فيبين أن من يصومها بعد صيام رمضان، فكأنما صام الدهر، يذكر النووي أن في هذا الحديث دلالة صريحة لمذهب الشافعي وأحمد وداود وموافقيهم في استحباب صوم هذه الستة، وقال مالك وأبو حنيفة يكره ذلك، ونقل عن مالك قوله في الموطأ: ما رأيت أحداً من أهل العلم يصومها، قالوا: فيكره لئلا يظن وجوبه، ودليل الشافعي وموافقيه هذا الحديث الصحيح الصريح، وإذا ثبتت السنة لا تترك لترك بعض الناس أو أكثرهم أو كلهم لها، وقولهم قد يظن وجوبها ينتقض بصوم عرفة وعاشوراء وغيرهما من الصوم المندوب، قال العلماء: وإنما كان ذلك كصيام الدهر؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فرمضان بعشرة أشهر، والستة بشهرين. [2]

1. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ستة أيام من شوال إتباعاً لرمضان.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 8/ 56.

النوافل التي ينال المتقربون إلى الله بها محبته سبحانه:

قربات العباد إلى الله مجالاتها كثيرة، تتصدرها الفرائض المحددة، كالصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج الفرض، ويلي ذلك التطوع، الذي كلما زاد العابد فيه زادت فرصه في نيل محبة الله، التي يحظى الفائز بها بالتوفيق والسداد في خطاه، فعن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) [1]

يذكر العيني عن القشيري قوله: قرب العبد من ربه يقع أولاً بإيمانه ثم بإحسانه، وقرب الرب من عبده ما يخصه به في الدنيا من عرفانه، وفي الآخرة من رضوانه، وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه، وقرب الرب بالعلم والقدرة عام للناس، وباللطف والنصرة خاص بالخواص، وبالتأنيس خاص بالأولياء، وقوله: (بالنوافل) المراد بها ما كانت حاوية للفرائض، مشتملة عليها، ومكملة لها. [2]

متى تصام الست من شوال؟ وما حكم تأخير القضاء؟

ينبغي البدء بالقضاء أولاً، ثم يشرع في أداء أيام التطوع، وبخاصة أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، عند وعده من صام الست من شوال، عطف بـ (ثم) ويعني ذلك الترتيب والتعقيب، ويفهم من هذا أن ثواب صيام الست من شوال يتحقق بعد الانتهاء من صيام شهر رمضان كاملاً، ولا يتحقق ذلك لمن بقيت عليه أيام أفطرها ولم يقضها، ولو حصل أن صام المرء الست من شوال قبل أداء ما عليه من قضاء الأيام التي أفطرها، فصيامه صحيح مع مخالفة الأولى، وبعض الناس يحتاج لترك الترتيب المطلوب، حين يضيق الوقت به، بمعنى أنه إذا لم يبق من شهر شوال أيام تتسع لأداء القضاء وصيام الست من شوال، فيصبح هنا مضطراً لأداء التطوع قبل القضاء الذي يمكن أن يؤدى لاحقاً، بينما التطوع

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.
2. عمدة القاري: 23 /89.

سيفوت إذا انتهى الشهر دون أدائه.

فالأفضل والأكمل البدء بقضاء الأيام التي تم فطرها لعذر في شهر رمضان، ولو قدم صيام الست من شوال على القضاء، جاز ذلك؛ لما جاء عن عائشة، رضي الله عنها، قولها: (كان يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ من رَمَضَانَ، فما أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَ إلا في شَعْبَانَ)[1]

وتأخير القضاء لا يلزمه سوى القضاء، ونميل للأخذ بهذا الرأي لعموم قوله تعالى: {أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ...}[2]، ولحديث عائشة المذكور آنفاً.

ويجوز صيام الست من شوال مباشرة بعد يوم عيد الفطر، ويجوز تأخيرها عن ذلك، كما يجوز أن تؤدى متوالية، ويجوز تفريقها دون تقيد بالتتابع، حيث إن الحديث ذكرها مطلقة (سِتًّا من شَوَّالٍ) دون إلزام بتقييد محدد، يذكر النووي عن الأصحاب -الشافعية- أن الأفضل أن تصام الستة متوالية عقب يوم الفطر، فإن فرقها أو أخرها عن أوائل شوال إلى أواخره حصلت فضيلة المتابعة؛ لأنه يصدق أنه أتبعه ستاً من شوال.[3]

حكم جمع صيام أيام القضاء والست من شوال بنية واحدة:

يتساءل بعض الناس ممن أفطروا في رمضان لعذر شرعي، وبخاصة النساء، عن حكم قضائهم ما فاتهم، بنية مشتركة مع صيام الأيام الستة من شوال، ويتلخص الحكم بتعذر القيام بذلك شرعاً، كون القضاء فرضاً، وصيام الستة من شوال نافلة، ومساحة أداء الفرض مستحوذة له، بخلاف نافلة وأخرى، فيمكن الجمع بينهما، وأداء الفرض مقدم على أداء النافلة، فالفرض الفائت دين لله، يجب الوفاء به، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: (اقْضُوا اللَّهَ، فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ)[4]

تقبل الله صيامنا رمضان والست من شوال، وكل ما نتأسى به بنبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب متى يقضى قضاء رمضان.
2. البقرة: 184.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 8/ 56.
4. صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت، والرجل يحج عن المرأة.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

ضحى بكبشين أملحين أقرنين

عـن أَنَـسٍ، قـال: (وَنَحَـرَ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بيـده سَـبْعَ بُـدْنٍ قِيَامًـا، وَضَحَّـى بِالْمَدِينَـةِ كَبْشَـيْنِ أَمْلَحَـيْنِ أَقْرَنَـيْنِ)[1]

عيـد الأضحـى المبـارك تقـدم فيـه الأضاحـي قربـات للـه؛ تأسـياً بسـنة خاتـم النبيـين محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، حيـث ضحّـى بكبشـين أملحـين أقرنـين، ومعـنى أملحـين: تثنيـة أملـح، وهـو الأبيـض يخالطـه أدنى سـواد، وقولـه أقرنـين: تثنيـة أقـرن، وهـو الكبـير القـرن.[2]

الأضحية تخلد ذكرى الفداء بذبح عظيم:

يتجـلى في الأضحيـة تخليـد ذكـرى الفـداء الربـاني لابـن إبراهيـم، عليهمـا السـلام، بعـد استسـلامهما لأمـر اللـه، وتقبلهمـا تنفيـذه مـن منطلـق الطاعـة المطلقـة للـه، فإبراهيـم، عليـه السـلام، رأى في المنـام أنـه يذبـح ابنـه، ولـم يـتردد في إبـلاغ الأمـر لـه، فمـا كان منـه إلا أن عـبر عـن تقيـد مطلـق بـه، دون تـردد، ممـا يـدل عـلى عمـق الإيمـان الراسـخ في قلـبي الولـد ووالـده، والـذي عـبرا عنـه في هـذا الموقـف العصيـب، وقـد سـجلت سـورة الصافـات حيثيـات هـذا الموقـف بوضـوح وجـلاء، حيـث يقـول عـز وجـل: {فَبَشَّرْنَـاهُ بِغُـلَامٍ حَلِيـمٍ* فَلَمَّـا بَلَـغَ مَعَـهُ السَّـعْيَ قَـالَ يَـا بُـنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَـامِ أَنِّي أَذْبَحُـكَ فَانظُـرْ مَـاذَا تَـرَى قَـالَ يَـا أَبَـتِ افْعَـلْ مَـا تُؤْمَـرُ سَـتَجِدُنِي إِن شَـاء اللَّـهُ مِـنَ الصَّابِرِيـنَ* فَلَمَّـا أَسْـلَمَا وَتَلَّـهُ لِلْجَبِـينِ* وَنَادَيْنَـاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيـمُ* قَـدْ صَدَّقْـتَ الرُّؤْيَـا إِنَّـا كَذَلِـكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ* إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْبَـلَاء الْمُبِـينُ* وَفَدَيْنَـاهُ بِذِبْـحٍ عَظِيـمٍ}[3]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب من نحر هديه بيده.
2. عمدة القاري: 10 /50.
3. الصافات: 101 - 107

وهنا يحسن الوقوف عند بعض متعلقات الأضحية وأحكامها، للعلم بها، والعمل بمقتضاها، ومن أبرزها:

معنى الأضحية وحكمها:

الأضحية، هي: ما يذبح أو ينحر يوم الأضحى، وأيام التشريق الثلاثة التي تليه من بهيمة الأنعام - إبل، بقر، غنم- تقرباً لله عز وجل، بصفة مخصوصة وشروط بينة.

وقد اختلف الفقهاء في حكمها، فهي سنة مؤكدة عند جمهورهم، وواجبة عند أبي حنيفة، وفي قول لأحمد، وأدلة الجمهور أقوى، وأبرزها أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا رَأَيْتُمْ هِلَالَ ذِي الحِجَّةِ، وَأَرَادَ أحدكم أَنْ يُضَحِّيَ، فَلْيُمْسِكْ عن شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ)[1]، فقوله: (وَأَرَادَ أحدكم أَنْ يُضَحِّيَ) دليل على أنها لا تجب.[2]

ومن أبرز أدلة القائلين بالوجوب، قوله صلى الله عليه وسلم: (من كان له سَعَةٌ، ولم يُضَحِّ فلا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا)[3]، فرأوا أن مثل هذا الوعيد، لا يلحق بترك غير الواجب.[4]

وفي تحفة الأحوذي، أن هذا الحديث اختلف في رفعه ووقفه، والموقوف أشبه بالصواب، قاله الطحاوي وغيره، ومع ذلك فليس صريحاً في الإيجاب، قاله الحافظ.

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}[5]، والأمر للوجوب، وأجيب بأن المراد تخصيص الرب بالنحر له لا للأصنام، فالأمر متوجه إلى ذلك؛ لأنه القيد الذي يتوجه إليه الكلام، ولا شك في وجوب تخصيص الله بالصلاة والنحر.[6]

والذي يبدو أن الأقرب للصواب هو القول إنها سنة مؤكدة، مرغب فيها، يثاب فاعلها، ولا يعاقب تاركها، لكن يحبذ للقادر على التضحية أن يبادر لذلك؛ طلباً للمثوبة، ومحافظة على هذه الشعيرة المباركة.

---

1. صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة....
2. كشف المشكل: 4/ 425.
3. سنن ابن ماجة، كتاب الأضاحي، باب الأضاحي واجبة هي أم لا، وحسنه الألباني.
4. عمدة القاري: 21/ 144.
5. الكوثر: 2.
6. تحفة الأحوذي: 5 /79.

وقت ذبح الأضحية:

يبدأ وقت الذبح المشروع للأضاحي من بعد الانتهاء من صلاة العيد، فالله سبحانه رتب القيام بالنحر عقب أداء الصلاة، فقال تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [1]

ولا يجوز الشروع بذبح الأضحية قبل الانتهاء من صلاة العيد، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَوَّلَ ما نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هذا أَنْ نُصَلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِعَ، فَنَنْحَرَ، من فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هو لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ، ليس من النُّسُكِ في شَيْءٍ)[2]

ويمتد وقته حتى غروب شمس اليوم الثالث من أيام التشريق؛ أي الرابع من أيام العيد.

شروط الأضحية وفضلها:

يشترط في الأضحية أن تبلغ السن المحدد لها في الشرع، بأن تبلغ الشاة عاماً، وتدخل في الثاني، ويجوز في الضأن الذي ينهي الشهر السادس، ويدخل في السابع، وأن تبلغ البقرة السنة الثانية، وتدخل في الثالثة، أما الإبل، فينبغي أن تنهي السنة الخامسة، وتدخل في السادسة، لقوله صلى الله عليه وسلم: (لَا تَذْبَحُوا إلا مُسِنَّةً، إلا أَنْ يَعْسُرَ عَلَيْكُمْ، فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً من الضَّأْنِ)[3]

وقد أجاز مجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين التضحية بالعجول المسمنة، ولو لم تبلغ السنتين من العمر، تيسيراً على المضحي لندرة توفر أضاحي من هذا الصنف بهذا العمر، ومراعاة لمصلحة المستفيد من لحم الأضحية، من ناحية اللحم الجيد والوافر.

ويشترط في الأضحية كذلك أن تكون سليمة من العيوب، فلا تقبل العرجاء، ولا العوراء، ولا العمياء، ولا الهزيلة المريضة، وينبغي أن يطيب المضحي بها نفساً، فيختار الحسنة الجميلة السمينة، ففضلها عظيم، وأجرها كبير.

---

1. الكوثر:2.
2. صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب سنة الأضحية.
3. صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية.

توزيع لحم الأضحية والأكل منه:

بذبح الأضحية أو نحرها يتحقق المطلوب الرئيس، وبالنسبة إلى لحمها، فليس للتصرف فيه شرط مقيد، سوى أن لا يباع منه شيء، ولا يعطى للجزار منه أو من متعلقات الأضحية شيء على سبيل الأجرة، فعن عَلِي، رضي الله عنه: (أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ على بُدْنِهِ، وَأَنْ يَقْسِمَ بُدْنَهُ كُلَّهَا لُحُومَهَا، وَجُلُودَهَا، وَجِلَالَهَا، ولا يُعْطِيَ في جِزَارَتِهَا شيئاً)[1]

ويمكن للمضحي أن يوزع الأضحية كلها على الفقراء والأصدقاء والأقارب، ولا يشترط الفقر فيمن يأخذ منها، ويمكن الانتفاع منها كلها للمضحي وأهل بيته، ويمكن لتحصيل فضل أكثر، الجمع بين التصدق والإهداء والأكل، عملاً بهديه جل في علاه: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}[2]

فهذه وقفات عند بعض متعلقات الأضحية وأحكامها، عسى التذكير بها أن يفيد، فالذكرى تنفع المؤمنين، راجين الله العلي القدير أن يبارك لنا وللمسلمين في أنحاء المعمورة بعيد الأضحى المبارك، وفي أيامنا كلها، وأن يتقبل منا صالح الأعمال، ويغفر لنا سيئها، وأن يهدينا للعمل بكتابه، وسنة نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب يتصدق بجلود الهدي.
2. الحج:28.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يشدد على منع الاعتداء على الأموات وقبورهم

عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لَأَنْ يَجْلِسَ أحدكم على جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ، فَتَخْلُصَ إلى جِلْدِهِ، خَيْرٌ له من أَنْ يَجْلِسَ على قَبْرٍ)[1]

ينفر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الجلوس على القبور، بطريقة تصويرية مرعبة، فجلوس المرء على جمرة تحرق ثيابه وينفذ أثر لهيبها إلى جلده، أهون من جلوسه على قبر، وإذا كان هذا حال الجالس على القبر، فكيف بالذي يجرفه أو ينبشه؟

يقول الإمام النووي: قال أصحابنا - يعني الشافعية- تجصيص القبر مكروه، والقعود عليه حرام، وكذا الاستناد إليه، والاتكاء عليه، وأما البناء عليه، فإن كان في ملك الباني فمكروه، وإن كان في مقبرة مسبلة فحرام، نص عليه الشافعي والأصحاب، قال الشافعي في الأم: ورأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنى.[2]

كرامة الإنسان:

يُعنى الإسلام باحترام كرامة الإنسان حياً وميتاً، بغض النظر عن لونه وجنسه ولغته ودينه، وغناه وفقره، فالله تعالى يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}[3]

1. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 7/ 27.
3. الإسراء:70.

جاء في تفسير أبي السعود: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} قاطبة، تكريماً شاملاً، لبرهم وفاجرهم؛ أي كرمناهم بالصورة، والتسلط على ما في الأرض، والتمتع به، والتمكن من الصناعات، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة، ومن جملته ما ذكره ابن عباس، رضي الله عنهما، من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان، فإنه يرفعه إليه بيده، وما قيل من شركة القرد له في ذلك مبني على عدم الفرق بين اليد والرجل، فإنه متناول له برجله التي يطأ بها القاذورات، لا بيده.[1]

ويقول الثعالبي: ومن أفضل ما أكرم به الآدمي العقل الذي به يعرف الله تعالى، ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه.[2] ومن كرامة الإنسان أن لا تُنتهك حرمته حياً ولا ميتاً، فذلك يؤذيه.

استهداف مقابر المسلمين في القدس:

تصاعدت وتيرة الانتهاكات الإسرائيلية في الآونة الأخيرة ضد مقابر المسلمين في القدس، ومن ذلك قرار ما يسمى بـ "محكمة الصلح الإسرائيلية" الذي رفض طلب لجنة رعاية المقابر الإسلامية في القدس الداعي لمنع الاستمرار في أعمال الحفر والنبش في قبور الموتى في أرض ضريح الشهداء المجاورة للمقبرة اليوسفية، بجانب المسجد الأقصى المبارك، مما يعني السماح باستمرار أعمال الحفر في أرض المقبرة، واستباحة رفات المدفونين فيها، وسبق لما تسمى بالمحكمة العليا الإسرائيلية أن قررت اقتطاع جزء من مقبرة "باب الرحمة" التاريخية لتحويله إلى حديقة توراتية، ومُنِعَ المسلمون من دفن موتاهم فيها، رضوخاً لليمين المتطرف الإسرائيلي، ومستوطنيه، علماً أن هذه المقبرة تاريخية، وتحوي بين جنباتها رفات الصحابيين الجليلين عبادة بن الصامت

1. تفسير أبي السعود: 5/ 186.
2. تفسير الثعالبي: 2 /351.

وشداد بن أوس، كما دفن فيها عدد من علماء مدينة القدس والشهداء الأبرار، وهي بالتالي تكتسب أهمية خاصة لدى المسلمين، إضافة إلى حرمتها كمقبرة لموتاهم، وقرار المس بها خطير ومدان بكل المعايير، لأنه يمس بالأماكن المقدسة الإسلامية التي لا يحق لأي جهة غير الأوقاف الإسلامية التدخل فيها، والذرائع والحجج التي تسوقها سلطات الاحتلال، وما تسمى بسلطة الآثار فيها، ما هي إلا غطاء رسمي للمخططات الاحتلالية المنظمة والمبيتة ضد مدينة القدس والمقدسات الإسلامية، تحت مسميات وذرائع واهية تهدف من خلالها إلى فرض سياسة الأمر الواقع، وبالتالي تهويد المدينة المقدسة وعبرتها، وقرار المحكمة المشار إليه آنفاً يأتي في سياق سياسة سلطات الاحتلال في هدم المنازل، ومصادرة الأراضي بحجج مختلفة ومفتعلة وغير قانونية ولا إنسانية، وهدم قبور الموتى في مقبرة مأمن الله، وهي تعمل كذلك على مضايقة المواطنين في أحياء المدينة المقدسة جميعها، حيث يهدد مخطط التهويد العقارات الإسلامية والعربية بالإخلاء لصالح ما يسمى بحارس أملاك الغائبين، ومما لا شك فيه أن سلطات الاحتلال تمعن بهذه الغطرسة، مستغلة حالة الانشغال العربي والإسلامي، والصمت الدولي، والشرخ الفلسطيني لتحقيق مآربها، في إطار محاولة فاشلة ومرفوضة لاستباحة كامل الأرض الفلسطينية، واقتراف الجرائم التي تطال البشر والحجر والأموات أيضاً.

تنبيه

نظراً للمخاطر المحدقة بأرض فلسطين وقبور المسلمين فيها، فإن أي إجراء في تلك القبور من قبل أهلها والجهات كافة، ينبغي أن يأخذ بالحسبان أن التصرف في القبور يجب أن يخضع لمعايير شرعية وواقعية واضحة، تضمن للأموات كرامتهم، ولذويهم الاطمئنان على أن موتاهم في منأى عن أي مس أو انتهاك، من هنا فإن دار

الإفتـاء الفلسـطينية تنسـق الفتـوى بخصـوص المقابـر مـع الجهـات ذات العلاقـة وعـلى رأسـها المحاكـم الشرعيـة ووزارة الأوقـاف والحكـم المحـلي، وذوي المدفونـين في المقـبرة، لضمـان سـلامة الإجـراء، وتجنبـاً لأي سـلبيات يمكـن أن تطـرأ عنـد اتخـاذ أي إجـراء مرتجـل بالخصـوص.

حفظنـا اللـه أحيـاء وحفـظ كرامتنـا بعـد الممـات، ويـسر لوطننـا وشـعبنا التحـرر مـن ربقـة هـذا الاحتـلال الغاشـم، لنعيـش أحـراراً ونمـوت كرامـاً، وصـلى اللـه وسـلم عـلى نبينـا محمـد الأكـرم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

الفصل الثاني / علوم قرآنية

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	أنزل الله على قلبه القرآن بلسان عربي مبين - الحلقة الأولى	31
.2	أنزل الله على قلبه القرآن بلسان عربي مبين - الحلقة الثانية	34
.3	أنزل الله على قلبه القرآن بلسان عربي مبين - الحلقة الثالثة والأخيرة	37

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

أنزل الله على قلبه القرآن بلسان عربي مبين

الحلقة الأولى

يخبر رب العزة أنه أنزل القرآن على قلب نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، بلسان عربي مبين، فيقول تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ* وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}[1]

أهمية اللغة العربية والاهتمام بها:

في الثامن عشر من كانون الأول يُحتفل سنوياً باليوم العالمي للغة العربية، ففي مثل هذا اليوم أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها رقم 3190 في كانون الأول/ ديسمبر عام 1973، الذي يقر بموجبه إدخال اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية، ولغات العمل في الأمم المتحدة، خلال انعقاد الدورة 190 للمجلس التنفيذي لمنظمة اليونسكو.

وقبل قرار الأمم المتحدة وبعده يُفترض أن يبقى الاهتمام بالغاً باللغة العربية، وبخاصة لدى العرب والمسلمين لأسباب بارزة، على رأسها أنها لغة القرآن الكريم، وأنها تتميز بخصائص أدبية عن اللغات الأخرى، ويعلل ابن كثير هذا التميز بأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس.[2]

ويقول ابن خلدون: اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير به عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة.[3]

---

1. الشعراء: 192 - 196.
2. تفسير ابن كثير، 2 /467.
3. مقدمة ابن خلدون: 1/ 554.

لغة القرآن الكريم:

اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، حيث أنزله رب العزة على قلب نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، بلسان عربي مبين، كما تبين الآيات أعلاه من سورة الشعراء، وأخواتها من آيات الذكر الحكيم التي تحدثت عن اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، جاء في التفسير الكبير أن الباء في قوله تعالى: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} إما أن تتعلق بالمنذِرين، فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان، وإما أن تتعلق بنزل، فيكون المعنى نزله باللسان العربي لينذر به؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي لتجافوا عنه، ولقالوا له ما نصنع بما لا نفهمه، فيتعذر الإنذار به، وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك، ولسان قومك، تنزيل له على قلبك؛ لأنك تفهمه ويفهمه قومك، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك؛ لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها.[1]

ويذكر الطبري أن نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين ليبين لمن سمعه أنه عربي، وبلسان العرب نزل، وإنما ذكر تعالى أنه نزل هذا القرآن بلسان عربي مبين في هذا الموضع إعلاماً منه مشركي قريش أنه أنزله كذلك لئلا يقولوا إنه نزل بغير لساننا، فنحن إنما نعرض عنه ولا نسمعه، لأنا لا نفهمه وإنما هذا تقريع لهم، وذلك أنه تعالى ذكره قال: { وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ}[2]، ثم بين أنهم لم يعرضوا عنه؛ لأنهم لا يفهمون معانيه، بل يفهمونها؛ لأنه تنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين بلسانهم العربي، ولكنهم أعرضوا عنه تكذيباً به واستكباراً، فقد كذبوا، فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون.[3]

قرآناً عربياً:

الله أنزل القرآن الكريم بلغة العرب، وقد تعددت الآيات القرآنية التي تضمنت إخباراً عن هذه القضية، أو إشارات دالة عليها، فالله تعالى يقول: {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً}[4] ويقول جل شأنه: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ

1. التفسير الكبير: 24/ 145.
2. الشعراء: 5.
3. تفسير الطبري: 19/112.
4. طه: 113.

قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً لَّعَلَّكُـمْ تَعْقِلُـونَ}[1]

يبـين الزمخـشري بـأن قولـه تعـالى: {أَنزَلْنَـاهُ} أي أنزلنـا هـذا الكتـاب، في حـال كونـه {قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً} وسـمي بعـض القـرآن قرآنـاً؛ لأنّ القـرآن اسـم جنـس، يقـع عـلى كلـه وبعضـه.[2]

وفي آيـة أخـرى جـاء مـكان لفـظ {أَنزَلْنَـاهُ} لفـظ {جَعَلْنَـاهُ} فقـال عـز وجـل: {إِنَّـا جَعَلْنَـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً لعَلَّكُـمْ تَعْقِلُـونَ}[3] ومعـنى {جعلنـاه}؛ أي صيرنـا هـذا الكتـاب عربيـاً، وقيـل: بيناه، وقيـل: سـميناه، وقيـل: وصفنـاه، يقـال: جعـل فـلان زيـداً أعلـم النـاس، أي وصفـه بهـذا، كقولـه تعـالى: {وَجَعَلُـوا الْمَلَائِكَـةَ الَّذِيـنَ هُـمْ عِبَـادُ الرَّحْمَـنِ إِنَاثًـا}[4]، وقولـه: {جَعَلُـوا الْقُـرْآنَ عِضِـينَ}[5]، وقـال: {أَجَعَلْتُـمْ سِـقَايَةَ الْحَـاجِّ }[6]، كلهـا بمعـنى الوصـف والتسـمية.[7]

وفي موضـع قـرآني آخـر سـبق وصـف القـرآن بالعـربي إشـارة إلى تفصيلـه، فقـال تعـالى: {كِتَـابٌ فُصِّلَـتْ آيَاتُـهُ قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً لِّقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ}[8]

{فُصِّلَـتْ آيَاتُـهُ}: أي فصـل كل شيء مـن أنواعـه عـلى حدتـه، وهـذا يسـتلزم البيـان التـام والتفريـق بـين كل شيء، وتميـيز الحقائـق، {قرآنـاً عربيـاً}؛ أي باللغـة الفصحـى، أكمـل اللغـات، فصلـت آياتـه، وجعـل عربيـاً لقـوم يعلمـون؛ أي لأجـل أن يتبـين لهـم معنـاه، كمـا يتبـين لفظـه، ويتضـح لهـم الهـدى مـن الضـلال، والغـي مـن الرشـاد.[9]

فـنزول القـرآن الكريـم باللغـة العربيـة فخـر للعـرب مـن ناحيـة، ومـيزة واضحـة للقـرآن الكريـم، مـن ناحيـة أخـرى، عـسى أن ييـسر اللـه الوقـوف عنـد مزيـد مـن هـذه المزايـا في ضـوء الآيـات القرآنيـة الكريمـة المنزلـة عـلى قلـب النـبي الأمـين محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابه الغـر الميامين، ومن تبعه بإحسـان إلى يـوم الدين.

---

1. يوسف:2.
2. الكشاف: 2 /415.
3. الزخرف:3.
4. الزخرف: 19.
5. الحجر: 91.
6. التوبة: 19.
7. تفسير البغوي: 4 /133.
8. فصلت: 3.
9. تفسير السعدي: 1/ 744.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

أنزل الله على قلبه القرآن بلسان عربي مبين

الحلقة الثانية

يقول الله تعالى في محكم التنزيل:{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ}[1]

تعرضت الحلقة السابقة بإيجاز إلى أهمية اللغة العربية والاهتمام بها، فهي لغة القرآن الكريم، حيث أنزله رب العزة على قلب نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، بلسان عربي مبين، وقد تم الاستشهاد بآيات قرآنية تضمنت إخباراً عن هذه القضية، أو إشارات دالة عليها، إضافة إلى الوقوف عند معاني بعض الألفاظ التي استخدمت في سياق حديث القرآن الكريم عن لغته، ومن تلك الألفاظ: {أَنزَلْنَاهُ} و{جعلناه} و{فصلت آياته}، وخلصت الحلقة إلى أن نزول القرآن الكريم باللغة العربية فخر للعرب من ناحية، وميزة واضحة للقرآن الكريم، من ناحية أخرى.

القرآن أنزله الله عربياً حُكْماً ولِساناً:

في الآية القرآنية الكريمة رقم 37 من سورة الرعد المثبت نصها أعلاه، يبين سبحانه أنه أنزل القرآن الكريم حكماً عربياً، يذكر الرازي ثلاثة وجوه في تفسير قوله تعالى: {أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيّا} الأول: حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، والثاني: القرآن مشتمل على جميع أقسام التكاليف، فالحكم لا يمكن إلا بالقرآن، فلما كان القرآن سبباً للحكم، جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة، والثالث: أنه تعالى حكم على جميع المكلفين بقبول القرآن، والعمل به، فلما حكم على الخلق بوجوب قبوله جعله حكماً، وأن قوله: {حُكْمًا عَرَبِيّاً} نصب على الحال، والمعنى أنزلناه حال كونه حكماً عربياً.[2]

1. الرعد:37.
2. التفسير الكبير: 19 /49.

وفي سورة الشورى بين جل في علاه أنه أوحى إلى نبيه، صلى الله عليه وسلم، قرآناً عربياً، فقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}[1]

يبين الزمخشري أن (ذلك) في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} إشارة إلى معنى الآية قبلها، من أنّ الله تعالى هو الرقيب عليهم، وما أنت برقيب عليهم، ولكن نذير لهم، وقوله تعالى هنا: {قُرْآناً عَرَبِيّاً} حال من المفعول به، أي أوحيناه إليك، وهو قرآن عربي بين، لا لبس فيه عليك، لتفهم ما يقال لك، ولا تتجاوز حدّ الإنذار، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا، أي ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم، أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسانك.[2]

أما في سورة الأحقاف، فأشار سبحانه إلى القرآن الكريم، مبيناً أنه لسان عربي، ومصدق لكتاب موسى، عليه السلام، فقال تعالى: {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ}[3]، والضمير في: {ومن قبله} يعود للقرآن، وكتاب موسى هو التوراة، و(إماماً) حال، ومعناه يقتدي به، والإشارة في: {وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ} تعود إلى القرآن، ومعنى {مصدق} أي مصدق بما قبله من الكتب.[4]

قرآن عربي غير ذي عوج:

من ثمرات نزول القرآن الكريم باللغة العربية، وضوحه وبيانه، فلا عوج فيه، مصداقاً لقوله عز وجل: {قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[5]

يفسر العلماء نفي العوج عن القرآن الكريم بأنه أنزل بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك، {لعلهم يتقون} أي يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد.[6]

---

1. الشورى:7.
2. الكشاف:4/ 215.
3. الأحقاف:12.
4. التسهيل لعلوم التنزيل:4/ 42.
5. الزمر:28.
6. تفسير ابن كثير:4/ 53.

ويذكر البغوي عن ابن عباس أنه غير مختلف، وعن مجاهد، قال: غير ذي لبس، وقال السدي: غير مخلوق، ويروى ذلك عن مالك بن أنس، وحكي عن سفيان بن عيينة عن سبعين من التابعين، أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق.[1]

ويبين السعدي أن المراد من نفي العوج عن القرآن الكريم، أنه ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته، كما قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَاً}[2][3] ، وكثير من المفسرين يؤكدون أن المراد من نفي العوج عن القرآن الكريم، يعني نفي الاختلاف عنه، فهذا أبو السعود يقول: {غير ذي عوج} أي لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه، فهو أبلغ من المستقيم، وأخص بالمعاني، وقيل: المراد بالعوج الشك.[4]

ويقول صاحب التسهيل لعلوم التنزيل في تفسير ذلك، بأن القرآن الكريم ليس فيه تضاد ولا اختلاف، ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، وقيل معنى: {غير ذي عوج} أي غير مخلوق، وقيل غير ذي لحن، فإن قيل: لِمَ قال: {غير ذي عوج} ولم يقل: {غير معوج} أن قوله {غير ذي عوج} أبلغ في نفي العوج عنه، كأنه قال: ليس فيه شيء من العوج أصلاً.[5]

فنزول القرآن الكريم باللغة العربية ميزة اختصه الله تعالى بها ليكون حُكْماً مفصلاً، لا عوج فيه، عسى أن ييسر الله الوقوف عند المزيد من مزايا نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، في ضوء الآيات القرآنية الكريمة المنزلة على قلب النبي الأمين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. تفسير البغوي:4 /78
2. الكهف:1.
3. تفسير السعدي:1 /724.
4. تفسير أبي السعود:7 /252.
5. التسهيل لعلوم التنزيل:3/ 195.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

أنزل الله على قلبه القرآن بلسان عربي مبين

الحلقة الثالثة والأخيرة

يقول عز وجل في محكم التنزيل: {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ* وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}(*)

تعرضت الحلقة السابقة لإنزال الله القرآن الكريم عربياً حكماً ولساناً، ومن تفسير ذلك أنه حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، أو أنه مشتمل على أقسام التكاليف جميعها، أو أنه تعالى حكم على المكلفين جميعهم بقبول القرآن، والعمل به، فلما حكم على الخلق بوجوب قبوله جعله حكماً، وأنه تعالى أنزله حال كونه حكماً عربياً، وفي سورة الشورى نص على أن الله أوحى إلى نبيه، صلى الله عليه وسلم، قرآناً عربياً، لا لبس فيه عليه، ليفهم ما يقال له، وفي سورة الأحقاف، بين سبحانه أن القرآن الكريم أنزل بلسان عربي مصدق لكتاب موسى، عليه السلام، وأنه غير ذي عوج، ومن تفسير نفي العوج عن القرآن الكريم أنه أنزل بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك؛ {لعلهم يتقون} أي يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد.

وكثير من المفسرين يؤكدون أن نفي العوج عن القرآن الكريم، يعني نفي الاختلاف عنه، فلا تضاد فيه، ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، وقوله: {غير ذي عوج} أبلغ في نفي العوج عنه، كأنه قال: ليس فيه شيء من العوج أصلاً.

* الشعراء: 197 - 199.

القرآن لم ينزل بلغة أعجمية:

الأدلة دامغة على أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية، ولا فرصة لأي مشكك بهذه الحقيقة التي أكدها رب البرية سبحانه ونفى عنه الأعجمية، ففي الآيات من سورة الشعراء المثبت نصها آنفاً تأكيد ضمني بأن لغة القرآن الكريم هي العربية وليست أعجمية، حيث يقول تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} يفسر الرازي هاتين الآيتين الكريمتين، فيقول: فلو نزلناه على بعض الأعجمين الذين لا يحسنون العربية لكفروا به أيضاً.[1]

أما صاحب التسهيل لعلوم التنزيل، فيبين بأن الأعجمين جمع أعجم، وهو الذي لا يتكلم، سواء كان إنساناً أم بهيمة أم جماداً، والأعجمي المنسوب إلى الأعجم، وقيل: بمعنى الأعجم، ومعنى الآية أن القرآن لو نزل على من لا يتكلم، ثم قرأه عليهم لا يؤمنوا؛ لإفراط عنادهم، ففي ذلك تسلية للنبي، صلى الله عليه وسلم، على كفرهم به، مع وضوح برهانه.[2]

وهذه الآيات هي التالية للآيات من سورة الشعراء نفسها، والتي تصدرت الحلقة الأولى من هذه السلسلة، ونصها: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ* وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}[3] وبصدد نفي الأعجمية عن القرآن الكريم، يقول عز وجل: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}[4]

اللسان هنا بمعنى اللغة والكلام، ويلحدون من ألحد إذا مال، وقرئ بفتح الياء من لحد، وهما بمعنى واحد، وهذا رد عليهم فإن الشخص الذي أشاروا إليه أنه يعلمه، أعجمي اللسان، وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة، فلا يمكن أن يأتي به أعجمي.[5]

وقال سبحانه: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ

---

1. التفسير الكبير: 24/ 146.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/ 90.
3. الشعراء: 192 - 196.
4. النحل:103.
5. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 162.

مِـن مَّـكَانٍ بَعِيـدٍ}[1]، جـاء في التسـهيل لعلـوم التنزيـل، أن الأعجمـي الـذي لا يفصـح، ولا يبـين كلامـه سـواء كان مـن العـرب، أو مـن العجـم، والعجمـي الـذي ليـس مـن العـرب، فصيحـاً كان أو غـير فصيـح، ونزلـت الآيـة بسـبب طعـن قريـش في القـرآن، فالمعـنى أنـه لـو كان أعجميـاً لطعنـوا فيـه، وقالـوا: هـلا كان مبينـاً؟!، فظهـر أنهـم يطعنـون فيـه عـلى أي وجـه كان، وقولـه: {أأعجمـي وعـربي} هـذا مـن تمـام كلامهـم، والهمـزة للإنـكار، والمعـنى أنـه لـو كان القـرآن أعجميـاً لقالـوا قـرآن أعجمي، ورسـول عـربي، أو مرسـل إليـه عـربي، وقيـل: إنما طعنـوا فيـه لما فيـه مـن الكلمـات العجميـة، كسـجين واسـتبرق، فقالـوا قـرآن أعجمي وعـربي؛ أي مختلـط مـن كلام العـرب والعجـم، وهـذا يجـري عـلى قـراءة أعجمـي بفتـح العـين.[2]

لسان قريش فيصل:

اللغـة العربيـة الـتي نـزل بهـا القـرآن الكريـم، واسـعة النطـاق، وقـد جعـل لسـان قريـش حكمـاً وفيصـلاً عنـد الاختـلاف في عربيـة مـن عربيـات القـرآن الكريـم، فقـد أَمَـرَ عُثْمَـانُ زَيْـدَ بـن ثَابِـتٍ، وَسَـعِيدَ بـن الْعَـاصِ، وَعَبْـدَ اللَّـهِ بـن الزُّبَـيْرِ، وَعَبْـدَ الرحمـن بـن الْحَـارِثِ بـن هِشَـامٍ، أَنْ ينسـخوها في الْمَصَاحِـفِ، وقـال لهـم: (إذا اخْتَلَفْتُـمْ أَنْتُـمْ وَزَيْـدُ بـن ثَابِـتٍ في عَرَبِيَّـةٍ مـن عَرَبِيَّـةِ الْقُـرْآنِ، فَاكْتُبُوهَـا بِلِسَـانِ قُرَيْـشٍ، فـإن الْقُـرْآنَ أُنْـزِلَ بِلِسَـانِهِمْ، فَفَعَلُـوا) [3]

يبـين العيـني أن قولـه:(في عربيـة)؛ أي في لغـة عربيـة، (مـن عربيـة القـرآن) أي مـن لغتـه، وقولـه: (فـإن القـرآن أنـزل بلسـانهم)؛ أي بلسـان قريـش، والمـراد معظـم القـرآن.[4]

ممـا سـبق تظهـر الصلـة الوثيقـة بـين القـرآن الكريـم واللغـة العربيـة، فبهـا نـزل، وهـي مرجـع أصيـل في تفسـير آياتـه وبيـان معانيـه واسـتنباط الأحـكام الشرعيـة مـن آياتـه المنزلـة على قلب النـبي الأمـين محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

---

1. فصلت:44.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 4 /15.
3. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب...
4. عمدة القاري: 20 /15.

الفصل الثالث / سيرة وشمائل

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	مسراه أمانة في أعناق المؤمنين برسالته	41
.2	نصره الله يوم الفرقان في السابع عشر من رمضان	45
.3	التذكير بأسمائه في ذكرى مولده - الحلقة الأولى	48
.4	التذكير بأسمائه في ذكرى مولده - الحلقة الثانية والأخيرة	52
.5	يحسر ثوبه ليصيبه المطر - الحلقة الأولى	56
.6	يحسر ثوبه ليصيبه المطر - الحلقة الثانية	59
.7	يحسر ثوبه ليصيبه المطر - الحلقة الثالثة	63
.8	يحسر ثوبه ليصيبه المطر - الحلقة الرابعة والأخيرة	66
.9	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الأولى	69
.10	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الثانية	72
.11	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الثالثة	75
.12	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الرابعة	79
.13	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الخامسة	82
.14	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة السادسة والأخيرة	85

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

مسراه أمانة في أعناق المؤمنين برسالته

يثني الله في قرآنه الكريم، على حافظي الأمانات والعهود، فيقول عز وجل: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}[1]

هذه الآية الكريمة تضمنتها سورتان قرآنيتان، هما المؤمنون والمعارج، جاء في أضواء البيان: أن الله جل وعلا، ذكر في هذه الآية الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس، أنهم محافظون على الأمانات والعهود، والأمانة تشمل كل ما استودعك الله، وأمرك بحفظه، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الناس، والعهود أيضاً تشمل كل ما أخذ عليك العهد بحفظه من حقوق الله، وحقوق الناس، وقوله: {راعون} جمع تصحيح للراعي، وهو القائم على الشيء بحفظ، أو إصلاح، كراعي الغنم، وراعي الرعية.[2]

ويخاطب الله المؤمنين، ناهياً عن خيانة الله والرسول والأمانات، فيقول عز وجل:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}[3]

يذكر الزمخشري أن معنى الخون النقص، كما أن معنى الوفاء التمام، ومنه تخوّنه إذا تنقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء، فقد أدخلت عليه النقصان فيه.[4]

---

1. المؤمنون:8، والمعارج: 32.
2. أضواء البيان:5/ 319 - 320.
3. الأنفال:27.
4. الكشاف:2/ 202.

ومن أسمى الأمانات التي يجب على المؤمنين حفظها، مقدسات الأمة ودينها، ومن أبرزها المسجد الأقصى المبارك، مسرى النبي محمد، صلى الله عليه سلم، وقبلة المسلمين الأولى، وفي المقابل يحرم عليهم خيانته والتخاذل عن نصرته، أو التفريط بذرة من ترابه الطهور.

ذكرى الإسراء والمعراج:

تحل بالمسلمين في أنحاء المعمورة ذكرى الإسراء والمعراج، الذي أثبت الله خبرها في فاتحة سورة الإسراء، فقال عز وجل: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[*]، ولا يخفى على أحد أن المسلمين يتعبدون إلى الله في صلاتهم وخارجها بتلاوة القرآن، ومنه هذه الآية الكريمة، والتي تُثبت بما لا يدع مجالاً لأي مرتاب، أن الله جل في علاه أسرى بعبده النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى الذي بارك سبحانه حوله، وهذا الربط بين هذين المسجدين العظيمين لم يحدث عبثاً، وإنما هو ربط عقائدي مقصود، فحادثة الإسراء عقائدية بامتياز في مجرياتها وخروجها عن مقدور الخلق ومألوفهم، ولم تكن حادثة الإسراء لتتم دون غاية عليا، فحاشى لله أن يصدر عنه الفعل والأمر دون غايات ومقاصد يريدها سبحانه، وكون بعض الناس يغفلون عنها أو لم تبلغها مداركهم، لا ينفي عنها الحكمة والقصد والغاية، وربط المسجدين الحرام والأقصى بعضهما ببعض في ضوء آية الإسراء وحادثته، واضح وجلي، نشأ عنه عقيدة راسخة في قلوب المؤمنين بالله وبقرآنه ورسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، فالمؤمن بعظمة البيت الحرام ينبغي له الإيمان بعظمة المسجد الأقصى المبارك، والحفاظ على بيت الله الحرام ينبغي أن يوازيه حفاظ على المسجد الأقصى، والتفريط بأي المسجدين يعني التهاون بالآخر -لا قدر الله أن

* الإسراء:1.

يكـون ذلـك- ومـن أبـرز مؤكـدات الربـط العقائـدي بـين المسـجدين الحـرام والأقـصى مـا يـأتي:

الموالاة بينهما في الوجود:

عـن أبي ذَرٍّ قـال: قلـت: (يـا رَسُـولَ اللَّـه، أَيُّ مَسْـجِدٍ وُضِـعَ فِي الأرض أَوَّلُ؟ قـال: الْمَسْـجِدُ الْحَـرَامُ، قلـت: ثُـمَّ أَيٌّ؟ قـال: الْمَسْـجِدُ الْأَقْـصَى، قلـت: كَـمْ بَيْنَهُمَـا؟ قـال: أَرْبَعُـونَ سَـنَةً، وَأَيْنَمَـا أَدْرَكَتْـكَ الصَّـلَاةُ فَصَـلِّ، فَهُـوَ مَسْـجِدٌ).[1]

تشد الرحال إليهما والمسجد النبوي:

عـن أَبِي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، عـن النـبي، صلى الله عليه وسـلم، قـال: (لَا تُشَـدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثَلَاثَـةِ مَسَـاجِدَ؛ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْـجِدِ الرَّسُـولِ، صـلى الله عليه وسـلم، وَمَسْـجِدِ الْأَقْصَى)[2]

قبلتا الصلاة:

مـن وجـوه الربـط العقائـدي بـين المسـجدين الحـرام والأقـصى، أن اللـه أمـر المسـلمين بالتوجـه في صلاتهـم أولاً إلى بيـت المقـدس حاضنـة المسـجد الأقـصى، ثـم أمرهـم بالتحـول في صلاتهـم إلى جهـة البيـت الحـرام في مكـة المكرمـة، وعـن هـذا يقـول عـز وجـل: {قَـدْ نَـرَى تَقَلُّـبَ وَجْهِـكَ فِي السَّـمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّـكَ قِبْلَـةً تَرْضَاهَـا فَـوَلِّ وَجْهَـكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ وَحَيْـثُ مَـا كُنتُـمْ فَوَلُّـواْ وُجُوهَكُـمْ شَـطْرَهُ...}[3]

الاعتداء المتصاعد ضد المسجد الأقصى المبارك:

يتعـرض مـسرى النـبي محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، لحملـة اعتـداءات شرسـة ومتصاعـدة، تسـتهدف وجـوده وقداسـته، واختصاصـه بالمسـلمين دون سـواهم، وتشـمل هـذه الاعتـداءات اقتحامـات شـبه يوميـة لباحاتـه، ومحـاولات آثمـة لإقامـة شـعائر وطقـوس غـير إسـلامية فيهـا، حـتى إن فظائـع الجريمـة بلغـت بهـم أن يقيمـوا وصـلات الرقـص، ويشربـوا الخمـر عنـد

1. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
2. صحيح البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.
3. البقرة:144.

أبوابـه ومداخلـه، ويجـروا عقـود الـزواج في سـاحاته، ويدوسـوا فـرش الصـلاة فيـه بأحذيتهـم، ويعنفـوا المصلـين العاكفـين فيـه، دون أن يفرقـوا بـين كبـار السـن وصغارهـم، ولا بـين الرجـال والنسـاء، وكيـف يأبهـون بـشيء؟! وقـد وجـدوا عـلى باطلهـم أعوانـاً مـن أبنـاء الجلـدة، وممـن لهـم أسـماء عربيـة أو إسـلامية، غـير أن قلوبهـم مـع المدنسـين لـه، خشـية أن تصيبهـم دائـرة، عليهـم دائـرة السـوء، إن لـم يرجعـوا إلى دينهـم وصوابهـم، وينـصروا مسـجدهم الأقـصى الـذي بـارك اللـه حولـه، وارتـوى ترابـه بدمـاء الشـهداء، وسـجن الأسرى مـن أحـرار هـذه الأمـة، وحمـاة مجدهـا فـداء لـه.

سـائلين اللـه العـلي القديـر أن يحـرر قدسـنا ومسرانـا وأسرانـا، وأن يعجـل في ذلـك، لننعـم بشـد الرحـال إلى المسـجد الأقـصى المبـارك، عمـلاً بتوجيهـات نبينـا، وخاتـم الأنبيـاء والمرسـلين محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
نصره الله يوم الفرقان
في السابع عشر من رمضان

يخاطب الله المسلمين بقوله عز وجل:{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1]

تضمنت هذه الآية الكريمة تذكير لقارئي القرآن الكريم، المنزل في رمضان، بيوم الفرقان، الذي التقى فيه الجمعان، ذاك اليوم هو يوم بدر الذي نصر الله فيه المسلمين بقيادة رسولهم محمد، صلى الله عليه وسلم، على المشركين من قريش، في رمضان، حيث فرق الله بهذا النصر المظفر بين الحق والباطل، وأعز فيه جنده في أول لقاء حربي حاسم لهم مع أعدائهم، وقد منَّ الله على المسلمين بهذا النصر المؤزر، فقال جل شأنه: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[2]

أداء الواجبات البدنية في رمضان:

يحسن بالصائمين التأسي بسيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحبه، رضي الله عنهم، الذين لم يمنعهم صيام رمضان من أداء واجباتهم البدنية، فجاهدوا في الله حق الجهاد، وألقوا عن كواهلهم دواعي الاسترخاء والكسل لما كان النداء، ولم يتذرعوا بالجوع والعطش، أو الانشغال بأداء العبادات، فنصرهم الله أولاً على نوازع الخمول، وحب التلذذ بالمُتع، ثم أخذ بأيديهم نحو النصر الحاسم على الظالمين الذين ناصبوهم العداء، ولرفع الحرج عن الصائمين رخص الله لهم أن يفطروا في السفر، وعند تعسر استمرارهم بأداء الصيام، من باب مبدأ رفع الحرج والعسر، المتضمن في آيات الذكر الحكيم، حيث يقول

1. الأنفال:41.
2. آل عمران:123.

عـز وجل:{...مَـا يُرِيـدُ اللّـهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُـم مِّـنْ حَـرَجٍ ...}[1]{...وَمَـا جَعَـلَ عَلَيْكُـمْ فِي الدِّيـنِ مِـنْ حَـرَجٍ}[2]{...وَمَـن كَانَ مَرِيضـاً أَوْ عَـلَى سَـفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِّـنْ أَيَّـامٍ أُخَـرَ يُرِيـدُ اللّـهُ بِكُـمُ الْيُـسْرَ وَلاَ يُرِيـدُ بِكُـمُ الْعُـسْرَ...}[3]

وعـن قَزَعَـةُ قـال: (أَتَيْـتُ أَبَـا سَـعِيدٍ الْخُـدْرِيَّ، رضي اللـه عنـه، وهـو مَكْثُـورٌ عليـه، فلمـا تَفَـرَّقَ النـاس عنـه، قلـت: إِنِي لَا أَسْـأَلُكَ عَمَّـا يَسْـأَلُكَ هَـؤُلَاءِ عنـه، سَـأَلْتُهُ عـن الصَّـوْمِ فِي السَّـفَرِ، فقـال سَـافَرْنَا مـع رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، إِلى مَكَّـةَ وَنَحْـنُ صِيَـامٌ، قـال: فَنَزَلْنَـا مَـنْزِلًا، فقـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: إِنَّكُـمْ قـد دَنَوْتُـمْ مـن عَدُوِّكُـمْ، وَالْفِطْـرُ أَقْـوَى لَكُـمْ، فَكَانَـتْ رُخْصَـةً، فَمِنَّـا مـن صَـامَ، وَمِنَّـا مـن أَفْطَـرَ، ثُـمَّ نَزَلْنَـا مَـنْزِلًا آخَـرَ، فقـال: إِنَّكُـمْ مُصَبِّحُـو عَدُوِّكُـمْ، وَالْفِطْـرُ أَقْـوَى لَكُـمْ فَأَفْطِـرُوا، وَكَانَـتْ عَزْمَـةً، فَأَفْطَرْنَـا، ثُـمَّ قـال: لقـد رَأَيْتُنَـا نَصُـومُ مـع رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بَعْـدَ ذلـك فِي السَّـفَرِ)[4]

جـاء في تحفـة الأحـوذي، أن هـذا دليـل عـلى أن الفطـر لمـن وصـل في سـفره إلى موضـع قريـب مـن العـدو أولى؛ لأنـه ربمـا وصـل إليهـم العـدو إلى ذلـك الموضـع الـذي هـو مظنـة ملاقـاة العـدو، ولهـذا كان الإفطـار أولى، ولـم يتحتـم، وأمـا إذا كان لقـاء العـدو متحققـاً، فالإفطـار عزيمة؛ لأن الصائـم يضعـف عـن منازلـة الأقـران، ولا سـيما عنـد غليـان مراجـل الـضراب والطعـان.[5]

فالصيـام بـريء مـن أعـذار المتعذريـن بـه للتقصـير في أداء الواجبـات، والأمـر عنـد المقتـضى يحتمـل الموازنـة بـين الفطـر والصيـام، بمـا يناسـب ظـرف الواجـب المطلـوب أداؤه، فلـن يكـون الصيـام يومـاً معوقـاً لتلبيـة نـداء الواجـب، ولا مـبرراً للتقصـير في الالتزامـات.

اللّهُ عَلىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ:

خاتمـة الآيـة 41 مـن سـورة الأنفـال، والآيـة 39 مـن سـورة الحـج، والمثبـت نصاهمـا آنفـاً، والمتعلقتـان بلقـاءات المسـلمين الحربيـة، ختمتـا بالتأكيـد عـلى عظمـة قـدرة اللـه سـبحانه،

1. المائدة:6.
2. الحج:78.
3. البقرة:185.
4. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل.
5. تحفة الأحوذي:5 /271.

فهو على كل شيء قدير، كيف لا، وأمره بين الكاف والنون؟!! إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فإنقاذه لأنصاره حتى عند عسر حالهم، وصعوبة أوضاعهم، وهم يواجهون ترسانة أعدائهم، يقدره سبحانه كيف يريد، وكل مسخر لأمره من جند السماء والأرض، ففي بدر نزلت الملائكة تعاضد جيش المسلمين، ونزل ماء السماء يثبت أقدامهم، وفي الوقت نفسه يربك عدوهم، وكان للنعاس دور مؤثر في مؤازرة جند المسلمين، وعن هذا يحدث القرآن الكريم، فيقول رب البرية: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}[1]

وحادثة الطير الأبابيل التي قضي فيها على جيش المتغطرس أبرهة، سطرت في سورة الفيل، التي يقول عز وجل فيها: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ}[2]

سيبقى الأمل بالنصر منعقداً:

انتصار الحق والإيمان، الأمل بتحققه لن ينقطع، واليأس من فرج الله يتنافى مع روح الإيمان، والله عز وجل يقول: {...وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}[3].

وفي رمضان فرصة لتجديد عهد الإيمان مع الله، وتعزيز الأمل بتحقق نصره الموعود لعباده الأخيار، وما ذلك على الله بعزيز، وهو منا بعون الله قريب قريب.

سائلين الله أن يهدينا سبيل الرشاد، وأن ينصر ديننا، ويعز المؤمنين بما أنزل على قلب نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الأنفال:11.
2. سورة الفيل.
3. يوسف:87.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

التذكير بأسمائه في ذكرى مولده

الحلقة الأولى

عن مُحَمَّدِ بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ عن أبيه، رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ؛ أنا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وأنا المَاحِي الذي يَمْحُو اللهُ بِي الْكُفْرَ، وأنا الحَاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناس على قَدَمِي، وأنا العَاقِبُ)[1]

يذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف هذا خمسة من أسمائه الكريمة، وهذا العدد ليس على سبيل الحصر، وللعلماء آراء وأقوال في بيان المراد من ذكر هذا العدد، فيقول الإمام العيني: إن مفهوم العدد لا اعتبار له، فلا ينفي الزيادة، وقيل: إنما اقتصر عليها؛ لأنها موجودة في الكتب القديمة، ومعلومة للأمم السالفة، وزعم بعضهم أن العدد ليس من قول النبي، صلى الله عليه وسلم، وإنما ذكره الراوي بالمعنى، ورُد عليه لتصريحه في الحديث بذلك، وقيل معناه: ولي خمسة أسماء، لم يسمَّ بها أحد قبلي، وقيل معناه: إن معظم أسمائي خمسة، والجواب عن الثاني أن الصفة قد يطلق عليها الاسم كثيراً[2]

ولكل واحد من أسمائه، صلى الله عليه وسلم، معنى ودلالة، وفي ذكرى ميلاده، عليه الصلاة والسلام، يحسن التذكير بأسمائه، والوقوف عند معانيها، وفق الآتي:

محمد:

هو الاسم الأكثر شيوعاً، والذي سميت إحدى السور القرآنية به، وتكرر ذكره في القرآن الكريم أربع مرات فقط، وذلك في أربع سور، هي: آل عمران، والأحزاب، ومحمد،

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
2. عمدة القاري: 16 /96.

والفتـح، في الآيـات الآتيـة منهـا:

{وَمَـا مُحَمَّـدٌ إِلاَّ رَسُـولٌ قَـدْ خَلَـتْ مِـن قَبْلِـهِ الرُّسُـلُ أَفَـإِن مَّـاتَ أَوْ قُتِـلَ انقَلَبْتُـمْ عَـلَى أَعْقَابِكُـمْ وَمَـن يَنقَلِـبْ عَـلَىَ عَقِبَيْـهِ فَلَـن يَـضُرَّ اللّـهَ شَـيْئاً وَسَـيَجْزِي اللّـهُ الشَّـاكِرِينَ} [1]

{مَّـا كَانَ مُحَمَّـدٌ أَبَـا أَحَـدٍ مِّـن رِّجَالِكُـمْ وَلَكِـن رَّسُـولَ اللَّـهِ وَخَاتَـمَ النَّبِيِّـينَ وَكَانَ اللَّـهُ بِـكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمـاً} [2]

{وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ وَآمَنُـوا بِمَـا نُـزِّلَ عَـلَى مُحَمَّـدٍ وَهُـوَ الْحَـقُّ مِـن رَّبِّهِـمْ كَفَّـرَ عَنْهُـمْ سَـيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَـحَ بَالَهُـمْ}[3]

{مُّحَمَّـدٌ رَّسُـولُ اللَّـهِ وَالَّذِيـنَ مَعَـهُ أَشِـدَّاء عَـلَى الْكُفَّـارِ رُحَمَـاء بَيْنَهُـمْ تَرَاهُـمْ رُكَّعـاً سُـجَّداً يَبْتَغُـونَ فَضْـلاً مِّـنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانـاً سِـيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِـم مِّـنْ أَثَـرِ السُّـجُودِ ذَلِـكَ مَثَلُهُـمْ فِي التَّـوْرَاةِ وَمَثَلُهُـمْ فِي الْإِنجِيـلِ كَـزَرْعٍ أَخْـرَجَ شَـطْأَهُ فَـآزَرَهُ فَاسْـتَغْلَظَ فَاسْـتَوَى عَـلَى سُـوقِهِ يُعْجِـبُ الـزُّرَّاعَ لِيَغِيـظَ بِهِـمُ الْكُفَّـارَ وَعَـدَ اللَّـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ مِنْهُـم مَّغْفِـرَةً وَأَجْـراً عَظِيمـاً} [4]

واسـم محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يتصـدر الأسـماء الأكـثر انتشـاراً في كثـير مـن الـدول حـتى غـير الإسـلامية، في دلالـة واضحـة عـلى الاعـتزاز بـه، وحـب صاحبـه، عليـه الصـلاة والسـلام.

روى العيـني في عمـدة القـاري، أن اسـم (محمـد) لـم يتسـمَّ بـه في العـرب إلا عـدد محـدود جـداً، اختلـف فيـه الـرواة، فمنهـم مـن قـال هـم ثلاثـة، ومنهـم مـن قـال سـتة.[5]

وروى ابـن عبـد الـبر في الاسـتيعاب عـن ابـن عبـاس، قـال: لمـا ولـد النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، عـق عنـه عبـد المطلـب وسـماه محمـداً، فقيـل لـه: مـا حملـك عـلى أن سـميته محمـداً،

1. آل عمران: 144
2. الأحزاب: 40.
3. محمد: 2.
4. الفتح: 29.
5. عمدة القاري: 16 /96.

ولـم تسـمه باسـم آبائـه؟ فقـال: أردت أن يحمـده اللـه في السـماء، ويحمـده النـاس في الأرض.[1]

أحمد:

لـم يـرد اسـم النـبي أحمـد، عليـه الصـلاة والسـلام، في القـرآن سـوى مـرة واحـدة، وذلـك عـلى لسـان نـبي اللـه عيـسى بـن مريـم، عليهمـا السـلام، في الآيـة السادسـة من سـورة الصـف، فقال تعـالى: {وَإِذْ قَـالَ عِيـسَى ابْـنُ مَرْيَـمَ يَـا بَـنِي إِسْرَائِيـلَ إِنِّي رَسُـولُ اللَّـهِ إِلَيْكُـم مُّصَدِّقـاً لِّمَـا بَـيْنَ يَـدَيَّ مِنَ التَّـوْرَاةِ وَمُبَـشِّراً بِرَسُـولٍ يَـأْتِي مِـن بَعْدِي اسْـمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّـا جَاءهُـم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُـوا هَذَا سِـحْرٌ مُّبِينٌ}[2]

يذكـر السـمعاني أن معـنى أحمـد عـلى وجهـين؛ أحدهمـا: لأنـه كان يحمـد اللـه كثـيراً، والثـاني: لأن النـاس حمـدوه في فعالـه.[3]

ويذكـر الـرازي في التفسـير الكبـير أن أحمـد معنـاه أنـه أحمـد الحامديـن؛ أي أكثرهـم حمداً، فوجـب أن تكـون نعـم اللـه عليـه أكـثر لأن كـثرة الحمـد بحسـب كـثرة النعمـة والرحمـة، وإذا كان كذلـك لـزم أن تكـون رحمـة اللـه في حـق محمـد، عليـه الصـلاة والسـلام، أكـثر منهـا في حـق العالمين جميعهـم، فلهـذا السـبب قـال: {وَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَـةً لِلْعَالَمِـينَ}[4].[5]

ويذكـر كذلـك: أنـه مشـتق مـن الحمـد، والاسـم المشـتق مـن الحمـد ليـس إلا لنبينـا، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فـإن اسـمه محمـد وأحمـد ومحمـود.[6]

ويبين البغوي في تفسيره أن الألف في اسم أحمد للمبالغة في الحمد، وله وجهان:

أحدهمـا: أنـه مبالغـة مـن الفاعـل؛ أي الأنبيـاء كلهـم حمـادون للـه عـز وجـل، وهـو أكـثر حمـداً للـه مـن غـيره.[7]

---

1. تاريخ دمشق لابن عساكر: 3 /32.
2. الصف:6.
3. تفسير السمعاني: 5/ 426.
4. الأنبياء: 107
5. التفسير الكبير: 1/ 228.
6. التفسير الكبير: 3 /36.
7. فتح القدير للشوكاني: 5/ 263.

والثاني: أنه مبالغة من المفعول؛ أي الأنبياء كلهم محمودون، لما فيهم من الخصال الحميدة، وهو أكثر المناقب، وأجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها. [1]

ويروى عن عياض قوله في الشفا: سمى الله تعالى نبيه في كتابه محمداً وأحمد، فأما اسمه أحمد، فافعل مبالغة من صفة الحمد، ومحمد مفعل من كثرة الحمد، وسمى أمته في كتب أنبيائه بالحمادين، ثم في هذين الاسمين من عجائب خصائصه سبحانه، وبدائع آياته أنه سبحانه حمى أن يتسمى بهما أحد قبل زمانه، أما أحمد الذي أتى في الكتب، وبشرت به الأنبياء، فمنع سبحانه أن يتسمى به أحد غيره، حتى لا يدخل بذلك. [2]

سائلين الله العلي القدير أن يوفق لمتابعة الوقوف عند أسماء خاتم النبيين محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. تفسير البغوي: 4 /337.
2. تفسير الثعالبي: 4/ 296

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

التذكير بأسمائه في ذكرى مولده

- الحلقة الثانية والأخيرة

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: ألا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ الله عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وأنا مُحَمَّدٌ) (*)

تصدر الحلقة السابقة حديثه، صلى الله عليه وسلم، عن أسمائه، مع بيان أن عددها المذكور فيه ليس للحصر، وتم التعريج على بعض تأويلات العلماء لذكر هذا العدد، وأن لكل واحد من أسمائه، صلى الله عليه وسلم، معنى ودلالة، وقد انتهزت مناسبة ذكرى ميلاده، عليه الصلاة والسلام، للتذكير بها والوقوف عند معانيها ودلالاتها، وعلى رأس تلك الأسماء محمد، وهو الاسم الأكثر شيوعاً، والذي سميت إحدى السور القرآنية به، وتكرر ذكره في القرآن الكريم أربع مرات فقط، وذلك في أربع سور، هي: آل عمران، والأحزاب، ومحمد، والفتح، واسم محمد، صلى الله عليه وسلم، يتصدر الأسماء الأكثر انتشاراً في كثير من الدول والأوساط المجتمعية، حتى غير الإسلامية، في دلالة واضحة على الاعتزاز به، وعظيم حبه، عليه الصلاة والسلام.

وبالنسبة إلى اسم أحمد، فلم يرد في القرآن الكريم سوى مرة واحدة، وذلك على لسان نبي الله، عيسى ابن مريم، عليهما السلام، في الآية السادسة من سورة الصف، وهو مشتق من الحمد، ومن معانيه أنه كان يحمد الله كثيراً، فهو من المبالغة في الحمد من قبل الفاعل، أو أن الناس حمدوه في فعاله أكثر، فهو على هذا مبالغة في المفعول.

---

* صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

محمد ليس مُذَمَّمًا:

في حديث أبي هريرة المثبت نصه أعلاه، يبعد النبي، صلى الله عليه وسلم، عن شخصه شتائم الجاهلين، حيث كانوا يشتمون مذمماً، ويلعنون مذمماً، مما يعني أن تلك الشتائم لا تمسه، كون اسمه محمداً وليس مذمماً، يقول ابن حجر العسقلاني: كان الكفار من قريش من شدة كراهتهم للنبي، صلى الله عليه وسلم، لا يسمونه باسمه الدال على المدح، فيعدلون إلى ضده، فيقولون مذمم، وإذا ذكروه بسوء قالوا فعل الله بمذمم، ومذمم ليس هو اسمه، ولا يعرف به، فكان الذي يقع منهم في ذلك مصروفا إلى غيره.[1]

وجاء في مرقاة المفاتيح: والمعنى أن ما ذكروه أوصاف المذمم، وأنا بحمد الله محمد، وقيل: كانوا يسمونه بمذمم مكان محمد، قال التوربشتي: يريد بذلك تعريضهم إياه بمذمم مكان محمد، وكانت العوراء بنت حرب، زوجة أبي لهب، تقول: مذمماً قلينا، ودينه أبينا، وأمره عصينا.[2]

ومن أسمائه، صلى الله عليه وسلم، المنصوص عليها في الحديث الصحيح: (الماحي، والحاشر، والعاقب).

المَاحِي الذي يمْحُو الله بِه الْكُفْرَ:

الماحي هو الاسم الثالث من الخمسة المذكورة في الحديث، قيل: أراد بقوله الذي يمحو الله بي الكفر من جزيرة العرب، وقال الكرماني: محو الكفر إما من بلاد العرب ونحوها، وفيه نظر؛ لأنه وقع في رواية يمحو الله بي الكفرة، وفي رواية (وأنا الماحي) فإن الله يمحو به سيئات من اتبعه، ويبين العيني أن قوله هذا عام، يتناول كفر كل أحد، في كل أرض.[3]

الْحَاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناس على قَدَمِه:

الحاشر هو الاسم الرابع من الخمسة، وقد فسره بقوله: (الذي يحشر الناس على

1. فتح الباري: 6 /558.
2. مرقاة المفاتيح: 10 /458.
3. عمدة القاري: 16/ 96.

قدمي)؛ أي على أثري، أي أنه يحشر قبل الناس، ويوافق هذا لقوله في الرواية الأخرى: يحشر الناس على عقبي، ويقال معناه على زماني، ووقت قيامي على القدم، بظهور علامات الحشر، ويقال معناه: لا نبي بعدي، وقوله قدمي، ضبطوه بتخفيف الياء وتشديدها، مفرداً ومثنى.[1]

الْعَاقِبُ الذي ليس بَعْدَهُ نَبِيٌّ:

وقوله: (وأنا العاقب) هذا هو الخامس، وزيد في رواية عن الزهري: الذي ليس بعده أحد، وفي دلائل البيهقي، العاقب يعني الخاتم.[2]

وجاء في رواية لمسلم، عن مُحَمَّد بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ، عن أبيه، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (... وأنا الْعَاقِبُ، وَالْعَاقِبُ الذي ليس بَعْدَهُ نَبِيٌّ).[3]

وقد ذكر الله في قرآنه الكريم هذا الاسم بمعناه "خاتم النبيين"، فقال عز وجل: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}[4]

أسماء أخرى للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم:

يقول ابن حجر: ومما وقع من أسمائه في القرآن بالاتفاق: الشاهد المبشر النذير، المبين، الداعي إلى الله، السراج المنير: وفيه أيضاً المذكر، والرحمة، والنعمة، والهادي، والشهيد، والأمين، والمزمل، والمدثر، والمتوكل، ومن أسمائه المشهورة المختار والمصطفى، والشفيع المشفع، والصادق المصدوق، وغير ذلك، قال ابن دحية في تصنيف له، مفرد في الأسماء النبوية: قال بعضهم: أسماء النبي، صلى الله عليه وسلم، عدد أسماء الله الحسنى، تسعة وتسعون اسماً، قال: ولو بحث عنها باحث لبلغت ثلاثمائة اسم، وذكر في تصنيفه المذكور أماكنها من القرآن، والأخبار، وضبط ألفاظها، وشرح معانيها، واستطرد إلى فوائد كثيرة، وغالب الأسماء التي ذكرها وصف بها النبي، صلى الله عليه وسلم، ولم يرد

1. عمدة القاري: 16/ 96 - 97.
2. عمدة القاري: 16 /97.
3. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه، صلى الله عليه وسلم.
4. الأحزاب:40.

الكثير منها على سبيل التسمية، مثل عده (اللبنة) بفتح اللام وكسر الموحدة، ثم النون، في أسمائه، لحديث ... إلا موضع لبنة، قال: فكنت أنا اللبنة، كذا وقع في حديث أبي هريرة، وفي حديث جابر موضع اللبنة، وهو المراد، وقيل الحكمة في الاقتصار على الخمسة المذكورة في هذا الحديث، أنها أشهر من غيرها، موجودة في الكتب القديمة، وبين الأمم السالفة.[*]

وبوقفة التأمل والتدبر والتذكير هذه، نختم الحديث في هذه المرحلة عن أسمائه، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* فتح الباري: 6 /557 - 558.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحسر ثوبه ليصيبه المطر

الحلقة الأولى

قال أَنَسٌ: (أَصَابَنَا وَنَحْنُ مع رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، مَطَرٌ، قال: فَحَسَرَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ثَوْبَهُ، حتى أَصَابَهُ من المَطَرِ، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ صَنَعْتَ هذا؟ قال: لِأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى)[1]

يحدث الصحابي الجليل أنس بن مالك، رضي الله عنه، في هذا الحديث الشريف عن فعل من أفعال النبي، صلى الله عليه وسلم، إذ حسر ثوبه لما أصابه مطر، ليصيبه من بلله، معللاً فعله هذا بأن هذا الماء النازل من السماء، حديث عهد بربه تعالى، ويبين النووي في شرحه لصحيح مسلم، بأن معنى حسر كشف؛ أي كشف بعض بدنه، ومعنى حديث عهد بربه، أي بتكوين ربه إياه، ومعناه أن المطر رحمة، وهي قريبة العهد بخلق الله تعالى لها، فيتبرك بها، وفي هذا الحديث دليل أنه يستحب عند أول المطر أن يكشف غير عورته لينالـه المطـر.[2]

وفي مرقاة المفاتيح، أن الحكمة في حسر الثوب عند نزول المطر؛ لأنه جديد النزول بأمر ربه، فيكون كالطفل الصغير والنبت والزهر في الربيع، ما اختلط بالمخلطين، ولا تؤثر فيه مباشرة العاصين، أو لكونه نعمة مجددة، ولذا قيل لكل جديد لذة، أو لأنه بمنزلة الرسول والقاصد من عند الملك إلى من شاء من عباده، فيجب تعظيمه وتكريمه، أو لأن فيه إيماءً إلى قرب العهد من عالم العدم، الذي يتمناه الخائفون، وينتهي إليه السالكون الفانون، والله أعلم.

---

1. صحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 6 /195 - 196.

قال التوربشتي: أراد أنه قريب عهده بالفطرة، وأنه هو الماء المبارك، الذي أنزله الله تعالى من المزن ساعتئذ، فلم تمسه الأيدي الخاطئة، ولم تكدره ملاقاة أرض عُبد عليها غير الله. [1]

المطر والغيث:

استخدم لفظ المطر في حديث أنس آنف الذكر للتعبير عن ماء السماء الذي ينزل بأمر الله وتقديره سبحانه على الأرض، فينبت به الزرع، ويسقى منه الإنسان والطير والحيوان، وتدب به الحياة في الكون، وبدونه يكون الجدب والقحط، وتتعطل أبرز مرافق الحياة، وتتعسر حركتها، فالمطر كما الغيث يطلقان على الماء النازل على الأرض من مواضع تجمعه في المزن أو السحاب، ومن حيث الفرق الدقيق بين معنى المصطلحين واستخدامهما، فالغيث يستخدم للرحمة فحسب، أما المطر فيستخدم لها وللعقاب، ومن شواهد استخدام المطر للتعبير عن الماء النازل طبيعياً، قوله تعالى: {...وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى من مطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً} [2]

قال ابنُ عُيَيْنَةَ: ما سَمَّى الله تعالى مَطَراً في القُرْآنِ إلاَّ عذَاباً، وتُسَمِّيهِ العَرَبُ الغَيْثَ، وهْوَ قَوْلُهُ تعالى: {يُنزِلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قنطُوا} [3]

ورُدَّ على هذا الرأي، بأن المطر جاء في القرآن بمعنى الغيث، كما في الآية 102 من سورة النساء المذكورة آنفاً، فالمراد به هنا المطر قطعاً، ومعنى التأذي به؛ البلل الحاصل منه، والوحل، وغير ذلك، وقال الجوهري: المطر واحد الأمطار، ومطرت السماء تمطر مطراً، وأمطرها الله، وقد مطرنا، وناس يقولون: مطرت السماء، وأمطرت، بمعنى.

وقال أبو عبيدة: إذا كان من العذاب فهو أمطرت، وإن كان من الرحمة فهو مطرت. [4]

مصدر المطر والغيث:

تختلف عقائد الناس فيما يخص مصدر المطر، فعن زَيْدِ بن خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّهُ قال:

1. مرقاة المفاتيح: 5/ 181.
2. النساء:102.
3. الشورى :28.
4. عمدة القاري، 18 /248.

(صلى لنا رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ على إِثْرِ سَمَاءٍ كانت من اللَّيْلَةِ، فلما انْصَرَفَ أَقْبَلَ على الناس، فقال: هل تَدْرُونَ مَاذَا قال رَبُّكُمْ؟ قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: أَصْبَحَ من عِبَادِي مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، فَأَمَّا من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا من قال: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ) [1]

قال ابن الصلاح: النوء في أصله ليس الكوكب نفسه، فإنه مصدر ناء النجم إذا سقط وغاب، وقيل: أي نهض وطلع، وقال أبو عبيد: الأنواء ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها، يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر مقابله في المشرق من ساعته، وإنما سمي نوأً لأنه إذا سقط الساقط ناء الطالع، وذلك النهوض هو النوء، وانقضاء هذه الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة، وكانت العرب في الجاهلية إذا سقط منها نجم وطلع آخر يقولون لا بد أن يكون عند ذلك مطر أو ريح، فيقولون مطرنا بنوء كذا؛ أي المطر كان من أجل أن الكوكب ناء، وأنه هو الذي هاجه، وقال ابن الأعرابي:الساقطة منها في المغرب، هي الأنواء، والطالعة منها هي البوارح، وقال صاحب المطالع: وقد أجاز العلماء أن يقال مطرنا في نوء كذا، ولا يقال بنوء كذا. [2]

فهذه وقفة عند ما تيسر من ذكر المطر والغيث، والتمييز بينهما، وآراء العلماء حولهما، والاستبشار بهما، والحرص على التبرك بالماء المنزل من السماء، عسى أن ييسر الله متابعة الحديث عنهما في ضوء ما أثر عن خاتم النبيين محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صفة الصلاة، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم.
2. عمدة القاري: 6 /137

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحسر ثوبه ليصيبه المطر

الحلقة الثانية

عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها: (أن رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، كان إذا رَأَى الْمَطَرَ قال: اللهم صَيِّبًا نَافِعًا) [1]

تناولت الحلقة السابقة وصفاً لحال النبي، صلى الله عليه وسلم، لما أصابه والناس من حوله مطر، فَكشف ثَوْبَهُ، حتى أَصَابَهُ من الْمَطَرِ، مبرراً فعله هذا بكون المطر حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى، ومعناه أن المطر رحمة، وهي قريبة العهد بخلق الله تعالى لها، فيتبرك بها، مما يدل على أنه يستحب عند أول المطر أن يكشف غير عورته لينالـه المطر، الذي يستخدم لفظه للتعبير عن الماء النازل طبيعياً، وقد ذكر في القرآن بمعنى الغيث، كما يستخدم لفظه في بعض المواضع للتعبير عن نوع من العقاب الرباني، بينما لفظ الغيث فيستخدم للتعبير عن الرحمة فحسب، وبالنسبة إلى مصدر المطر والغيث، فهما ينزلان من عند الله جل في علاه، وفي الحديث الصحيح تحذير من نسبة نزول المطر للأنواء والكواكب، ففي الحديث الصحيح عن الله سبحانه: (أَصْبَحَ من عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا من قال: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب ما يقال إذا أمطرت.
2. صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم.

صَيِّبًا نَافِعًا:

في حديث عائشة، رضي الله عنها، أعلاه، دعا النبي، صلى الله عليه وسلم، ربه أن يجعل المطر النازل صيباً، وهو ما سال من المطر، ونصبه بتقدير اجعله، وأصله من صاب يصوب، إذا نزل، ووزنه فيعل، وقيل على الحال، أي أنزله علينا مطراً نازلاً، نافعاً موافقاً للغرض، غير ضار [1]، وقوله: نافعاً تتميم في غاية الحسن؛ لأن لفظة صيباً مظنة للضرر والفساد. [2] وقيل: أي لا مغرقاً كطوفان نوح، عليه السلام، قاله ابن الملك، ورأى صاحب مرقاة المفاتيح أن الأظهر أنه للاحتراز عن مطر لا يترتب عليه نفعٌ، أعم من أن يترتب عليه ضررٌ أم لا. [3]

إرسال السماء مدراراً:

وصف الله سبحانه في محكم التنزيل الغيث النازل من السماء بالمدرار؛ أي الكثيف المتتابع، جاء ذلك في ثلاث آيات من ثلاث سور قرآنية، ففي سورة الأنعام، يقول تعالى: {أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ} [4]، حيث وصف الماء المنزل من السماء بالمدرار في سياق التذكير بنعم الله على قرون أهلكهم الله بذنوبهم، بعد أن تجلى عليهم سبحانه بخيرات كثيرة، ومنها الماء المدرار الذي كنى عنه بلفظ السماء، وأراد بذلك المطر والسحاب، أو السماء حقيقة، و{مدراراً} بناء مبالغة وتكثير، من قول: در المطر؛ إذا غزر، {فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ} التقدير فكفروا وعصوا، فأهلكناهم، وهذا تهديد للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم. [5]

---

1. عون المعبود: 14/ 4.
2. فيض القدير: 5/ 134.
3. مرقاة المفاتيح: 3/ 551.
4. الأنعام:6.
5. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 3.

وفي سورة هود ذكر الماء المدرار في سياق الحث على الاستقامة والاستغفار، فهما يستجلبانه، فقال عز وجل: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ} [1]

جاء في التفسير أن السماء هنا المطر، ومدراراً بناء تكثير من الدر، يقال: در المطر واللبن وغيرهما، وفي الآية دليل على أن الاستغفار والتوبة سبب لنزول الأمطار، وروى أن عاداً كان حبس عنهم المطر ثلاث سنين، فأمرهم بالتوبة والاستغفار، ووعدهم على ذلك بالمطر، والمراد بالتوبة هنا الرجوع عن الكفر، ثم عن الذنوب؛ لأن التوبة من الذنوب لا تصح إلا بعد الإيمان. [2]

أما في سورة نوح فذكرت دعوة نوح، عليه السلام، قومه لاستغفار الله ربهم، معززاً إياها بوعدهم بأن يرسل السماء عليهم مدراراً، فقال جل شأنه عن خطاب نوح، عليه السلام، لقومه بالخصوص: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً} [3]

يذكر الرازي أن في السماء هنا وجوهاً؛ أحدها: أن المطر منها ينزل إلى السحاب، وثانيها: أن يراد بالسماء السحاب، وثالثها: أن يراد بالسماء المطر، من قوله: إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً، والمدرار الكثير الدرور، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، كقولهم: رجل أو امرأة معطار ومتفال. [4]

فالله رتب إرسال السماء مدراراً على الاستغفار، وهذا يدل على أن الاستغفار والتوبة والعمل الصالح قد يكون سبباً في تيسير الرزق. [5]

وقد أشار النَّبي، صلى الله عليه وسلم، إلى ذلك بقوله: (من أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ له في أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)[6]

1. هود:52.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 2 /107.
3. نوح:10 - 11.
4. التفسير الكبير: 30 /123.
5. أضواء البيان: 8/ 307
6. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم.

والمتدبر في الآيات الثلاث سالفة الذكر يلحظ أن القرآن الكريم عبر عن نزول المطر بـ {إرسال السماء مدراراً} دون ذكر المطر ولا الغيث، وحتى دون ذكر الماء، وترك للمخاطب والقارئ المجال ليفهم المراد من السياق.

وَالْإِرْسَالُ: بَعْثٌ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، فَأَطْلَقَ الْإِرْسَالَ عَلَى نُزُولِ الْمَطَرِ؛ لِأَنَّهُ حَاصِلٌ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ، فَشُبِّهَ بِإِرْسَالِ شَيْءٍ مِنْ مَكَانِ الْمُرْسِلِ إِلَى الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِ، وَالسَّمَاءُ مِنْ أَسْمَاءِ الْمَطَرِ تَسْمِيَةً لِلشَّيْءِ بِاسْمِ مَصْدَرِهِ[1]، وذلك من قبيل المجاز المرسل.[2]

فهذه وقفة أخرى عند ما تيسر من ذكر المطر والغيث، والتمييز بينهما، وآراء العلماء حولهما، والاستبشار بهما، والحرص على التبرك بالماء المنزل من السماء، عسى أن ييسر الله متابعة الحديث عنهما في ضوء ذكرهما في القرآن الكريم، وما أثر عن خاتم النبيين محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. التحرير والتنوير: 12/ 96.
2. التفسير المنير للزحيلي: 12/ 87.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحسر ثوبه ليصيبه المطر

الحلقة الثالثة

جاء في صحيح مسلم، بَاب التَّعَوُّذِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ وَالْفَرَحِ بِالْمَطَرِ، وفيه عن عَائِشَةَ زَوْجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، أنها قالت: (ما رأيت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا حتى أَرَى منه لَهَوَاتِهِ[1] إنما كان يَتَبَسَّمُ، قالت: وكان إذا رَأَى غَيْمًا أو رِيحًا عُرِفَ ذلك في وَجْهِهِ، فقالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَى الناس إذا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فيه الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إذا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ في وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ قالت: فقال: يا عَائِشَةُ ما يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فيه عَذَابٌ، قد عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وقد رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: {هذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا})[2].

بينت الحلقة السابقة معنى دعائه صلى الله عليه وسلم، لما كان يرى المطر: (صَيِّبًا نَافِعًا) والصيب هو ما سال من المطر، وتقديره، اللهم اجعله مطراً نافعاً، وقوله نافعاً تتميم في غاية الحسن، لأن لفظة صيباً مظنة للضرر والفساد. وقيل: إنه للاحتراز عن مطر لا يترتب عليه نفعٌ، أعم من أن يترتب عليه ضررٌ أم لا.

كما بينت الحلقة السابقة المراد بإرسال السماء مدراراً، بأنه وصف لماء المطر النازل من السماء بالكثيف المتتابع، كما جاء في ثلاث آيات من ثلاث سور قرآنية، وذلك في كل من سور: الأنعام، وهود، ونوح.

وجاء في التفسير أن المراد بالسماء في هذه الآيات القرآنية هو المطر، ومدراراً بناء تكثير، من الدر، وفي سورة نوح ذكر لدعوة نوح، عليه السلام، قومه لاستغفار الله ربهم، معززاً إياها بوعدهم بأن يرسل السماء عليهم مدراراً، وكذلك دعا هود قومه أن

1. لهواته: قال عياض: هي اللحمة التي بأعلى الحنجرة من أقصى الفم. (عمدة القاري:13 /171).
2. صحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر.

يستغفروا لاستجلاب ماء السماء المدرار، فالله رتب إرسال السماء مدراراً على الاستغفار، مما يدل على أن الاستغفار والتوبة والعمل الصالح قد يكونون سبباً في تيسير الرزق.

خشية العذاب عند رؤية الْغَيْمِ والرِّيحِ:

تسأل أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، في الحديث أعلاه النبي، صلى الله عليه وسلم، عن سبب ما كان يُرى في وجهه من كراهية لما كان يرى الغيم والريح، بخلاف الناس الذين كانوا يفرحون لرؤيتهما استبشاراً بالخير القادم أو المتوقع قدومه معهما، فيجيبها عليه الصلاة والسلام، قائلاً: (يا عَائِشَةُ، ما يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فيه عَذَابٌ، قد عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وقد رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا: {هذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا})

جاء في عون المعبود، أن قوله: (ما يؤمنني؟) بنونين، أي ما يجعلني آمناً؟ وقوله: (قد عذب قوم بالريح) هم عاد قوم هود، حيث أهلكوا بريح صرصر، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض، والعارض السحاب الذي يعترض في أفق السماء،(ممطرنا) أي ممطر إيانا.[1] وروي عن ابن عباس أن الرياح ثمان، أربع رحمة، وأربع عذاب، الرحمة: المبشرات والمنشرات والمرسلات والرخاء، والعذاب: العاصف والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر، وهما في البر.[2]

سؤال الله خير الريح:

جاء في الحديث الصحيح عن عَائِشَةَ، زَوْجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، أنها قالت: (كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا عَصَفَت الرِّيحُ، قال: اللهم إني أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ ما فيها، وَخَيْرَ ما أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ من شَرِّهَا، وَشَرِّ ما فيها، وَشَرِّ ما أُرْسِلَتْ بِهِ، قالت: وإذا تَخَيَّلَت السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فإذا مَطَرَتْ سُرِّيَ عنه، فَعَرَفْتُ ذلك في وَجْهِهِ، قالت عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فقال: لَعَلَّهُ يا عَائِشَةُ كما قال قَوْمُ عَادٍ: {فلما رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالوا: هذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}).[3] ومعنى سؤال خير الريح؛ أي خير

1. عون المعبود: 14/ 4.
2. التبصرة:2 /225.
3. صحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر.

ذاتها، وخير ما فيها؛ أي من منافعها كلها، وخير ما أرسلت به؛ أي بخصوصها في وقتها.[1]

قال الطيبي: السماء هنا بمعنى السحاب، و(تخيلت السماء) إذا ظهر فيها أثر المطر، والمخيلة موضع الخيال، وهو الظن، كالمظنة وهي السحابة الخليقة بالمطر، (تغير لونه) من خشية الله، ومن رحمته على أمته، وتعليماً لهم في متابعته، وخرج من البيت تارة، ودخل أخرى، وأقبل وأدبر، فلا يستقر في حالٍ من الخوف،(فإذا مطرت) أي السحاب، يقال: مطرت السماء وأمطرت بمعنى، (سُري عنه) أي كُشف الخوف وأُزيل عنه، (فعرفت ذلك في وَجْهِهِ) أي التغير، فسألته؛ أي عن سببه، فقال: لعله يا عائشة، قيل: لعل هذا المطر، والظاهر لعلَّ هذا السحاب، كما قال قوم عادٍ، الإضافة للبيان، أي مثل الذي قال في حقه قوم عاد: هذا عارضٌ ممطرنا، قال تعالى:{فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}[2]؛ أي فلما رأوا السحاب مستقبل أوديتهم، أي صحاريهم ومحال مزارعهم، قالوا - ظناً أنه سحاب ينزل منه المطر-: {هذا عارض ممطرنا} أي سحاب عرضٌ ليمطر، قال تعالى رداً عليهم: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ* تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}[3] فظهرت منه ريح فأهلكتهم، فلا يجوز لأحد أن يأمن من عذاب الله تعالى.[4]

فهذه وقفة أخرى عند ما تيسر من ذكر المطر والغيث، ومتعلقاتهما من الرياح والغيم وغيرهما، عسى أن ييسر الله متابعة الحديث عنهما في ضوء القرآن الكريم، وما أثر عن خاتم النبيين محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. مرقاة المفاتيح:3 /1115.
2. الأحقاف:24.
3. الأحقاف:24 - 25
4. مرقاة المفاتيح:3 /1115، بتصرف.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحسر ثوبه ليصيبه المطر

الحلقة الرابعة والأخيرة

عن عبد اللَّهِ بن أبي بَكْرٍ، عن عَبَّادِ بن تَمِيمٍ، عن عَمِّهِ، قال: (خَرَجَ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْتَسْقِي، وَحَوَّلَ رِدَاءَهُ)[1]

الحلقة السابقة تعرضت لرد الرسول، صلى الله عليه وسلم، على سؤال أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، واستغرابها، حيال ما كانت ترى في وجهه عليه الصلاة والسلام، من كراهية لما كان يرى الغيم أو الريح، فيجيبها، صلى الله عليه وسلم: (يا عَائِشَةُ، ما يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فيه عَذَابٌ، قد عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وقد رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: {هذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}) [2] مشيراً إلى قوم عاد وقوم هود، حيث أهلكوا بريح صرصر، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا عارض، وهو السحاب الذي يعترض في أفق السماء، (ممطرنا) أي ممطر إيانا. وكان عليه الصلاة والسلام، يسأل الله خير الريح، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، ويتعوذ من شرها، ومن شر ما فيها، وشر ما أرسلت به.

مشروعية الاستسقاء واستمرار الحاجة إليه:

يدل حديث عبد الله بن أبي بكر المثبت نصه أعلاه، على أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يصلي الاستسقاء، وهو كما جاء في فتح القدير، إنما يكون عند عدم الماء، وحبس المطر، ومعناه في اللغة طلب السقيا، وفي الشرع ما ثبت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في صفته من الصلاة والدعاء.[3]

1. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء وخروج النبي، صلى الله عليه وسلم، في الاستسقاء.
2. صحيح مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر.
3. فتح القدير: 1/ 91.

والصحابة الكرام، رضي الله عنهم، استسقوا، فقد روى أنس، رضي الله عنه، (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا، فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ)[1]

فالاستسقاء من سنن الرسول، صلى الله عليه وسلم، الفعلية، التي مارسها بنفسه، بكيفيات عديدة، بالتزامن مع التضرع إلى الله تعالى، واللجوء إليه سبحانه بالتوبة الصادقة عن الخطايا والذنوب جميعها، وترك المظالم، والتخلي عنها، والتقرب إلى الله بالطاعات؛ كصيام النوافل، وأداء الصدقات التطوعية، والضراعة إلى الله تعالى بقلوب خاشعة منكسرة، فالتذلل إلى الله تعالى من أسباب إجابة الدعاء، وقد وصف الله عباده الصالحين بذلك، فقال تعالى:{وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[2]

صفة الاستسقاء:

الاستسقاء عبادة، ورد أصلها عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وصفته لها صيغ عدة، وردت في الهدي النبوي، ففي الحديث الشريف: (أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ إِلَى المُصَلَّى، فَاسْتَسْقَى، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَقَلَبَ رِدَاءَهُ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ)[3]

ويسن خروج الناس إلى الفلاة لأداء صلاة الاستسقاء، يخرج الشيوخ والأطفال وأهل الدين والصلاح، لأنهم الأقرب إلى استجابة دعائهم.

وصلاة الاستسقاء كصلاة العيد؛ يكبر فيها الإمام تكبيرات الزوائد، ويجهر بها في القراءة، ثم يخطب بعدها بالناس، ويتوجه إلى القبلة بالدعاء، ويبالغ برفع الأيدي، وهو يدعو، ويكثر من الاستغفار.

ومن الأدعية التي وردت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في الاستسقاء (... اللَّهُمَّ

1. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.
2. الأنبياء:90.
3. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب تحويل الرداء في الاستسقاء.

اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا..“ [1]، وفي لفظ:“ ... اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا ...)[2]

الاستسقاء وصلاة الجمعة:

من صور الاستسقاء المشروعة الدعاء يوم الجمعة على المنبر في خطبة الجمعة، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، رضي الله عنه: (أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ، كَانَ وِجَاهَ الْمِنْبَرِ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَلَكَتِ الْمَوَاشِي، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً، وَلَا شَيْئًا، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالْآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ، وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ)[3]

وبهذا الإجمال عن الاستسقاء، نختم الحديث عما تيسر من ذكر المطر والغيث، ومتعلقاتهما من الرياح والغيم وغيرهما، في ضوء ما ذكره القرآن الكريم، وما أثر بالخصوص عن خاتم النبيين محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب الاستقاء، باب الاستقاء في المسجد الجامع.
2. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة.
3. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
وتحريم التقدم بين يديه

الحلقة الأولى

يخاطب الله جل في علاه المؤمنين في فاتحة سورة الحجرات، فيقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [1]

في هذه الآية القرآنية الكريمة ينهى الله عباده المؤمنين عن أن يقدموا بين يدي الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

تفسير المراد بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله:

في تفسير المراد بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، ثلاثة أقوال:

أحدها، لا تتكلموا بأمر قبل أن يتكلم هو به، ولا تقطعوا في أمر إلا بنظره.

والثاني، لا تقدموا الولاة بمحضره؛ فإنه يقدم من شاء.

والثالث، لا تتقدموا بين يديه إذا مشى، وهذا إنما يجري على قراءة يعقوب: {لا تقدموا} بفتح التاء والقاف والدال، والأول هو الأظهر؛ لأن عادة العرب الاشتراك في الرأي، وأن يتكلم كل أحد بما يظهر له، فربما فعل ذلك قوم مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فنهاهم الله عن ذلك، ولذلك قال مجاهد: معناه لا تفتاتوا على الله شيئاً حتى يذكره على لسان رسوله، صلى الله عليه وسلم، وإنما قال: بين يدي الله؛ لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، إنما يتكلم بوحي من الله. [2]

ومما يؤيد ترجيح التفسير الأول، أنه يعم المؤمنين في كل مكان وحين، فتقيد المؤمنين بعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالانتهاء عن التقدم بين يديه يكون ممكناً بناء عليه.

1. الحجرات:1.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 57.

الطاعة مطلقة لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم:

يتفق النهي الرباني عن التقدم بين يدي الله ورسوله، على معنى النهي عن التكلم بأمر قبل أن يتكلم هو به، ومنع القطع في أمر إلا بنظره، مع أمره سبحانه المتضمن في صريح عدد من آيات التنزيل، التي منها قوله عز وجل: {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[1]، وتكرر الأمر بطاعة الله والرسول بصريح اللفظ، في عشر آيات قرآنية أخرى، وذلك على النحو المبين في الجدول الآتي:

السورة	رقم الآية	النص
آل عمران	132	{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}
النساء	59	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ}
المائدة	92	{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ...}
الأنفال	1	{...وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}
الأنفال	20	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ}
الأنفال	46	{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ...}
النور	54	{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ...}
محمد	33	{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}
المجادلة	13	{...وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}
التغابن	12	{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}

فقد اشتركت هذه المواضع القرآنية في تضمن الأمر الإلهي بطاعة الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، بالاقتران المباشر مع الأمر بطاعته سبحانه، فالطاعتان تلتقيان في لزوم التقيد بالوحي الإلهي المباشر من الله جل في علاه، والصادر عن النبي المصطفى، عليه الصلاة والسلام، كونه لا ينطق عن الهوى، مصداقاً لقوله عز وجل: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[2]

1. آل عمران:32.
2. النجم:3 - 5.

التقيد بالوحي الإلهي:

الرسول، صلى الله عليه وسلم، يؤكد حقيقة تقيده بما يرده من الوحي، والله أمره بالإعلان عن هذه الحقيقة، فقال عز وجل: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ}[1]، وقال سبحانه: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[2]

وهكذا المؤمنون في شأنهم كله يمنعون شرعاً من الخروج عن هذه الطاعة، تنفيذاً للأوامر والتوجيهات الربانية، التي منها المتضمنة في قوله عز وجل: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}[3]

والطاعة لله والرسول، صلى الله عليه وسلم، تتسامى على المزاجيات، فتلتزم في الأحوال كلها، عملاً بحديث عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ، قال: (بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أو نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كنا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لومة لَائِمٍ)[4]

فهذه وقفة تمهيدية للحديث عن نهي الله عن التقدم بين يديه ويدي نبيه، صلى الله عليه وسلم، في ضوء فاتحة سورة الحجرات، التي نرجو أن يتيسر متابعة الوقوف عند المزيد من معانيها وجوانبها، ونسأله سبحانه أن يهدينا للعمل بما يرضيه، وأن يوفقنا لحسن طاعته، وطاعة رسوله محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الأنعام:50.
2. الأعراف:203.
3. الأحزاب:36.
4. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
وتحريم التقدم بين يديه

الحلقة الثانية

يقول عز وجل: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}[1]

تعرضت الحلقة السابقة إلى نهي الله عباده المؤمنين عن أن يقدموا بين يدي الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وإلى الأقوال الثلاثة في تفسير المراد بهذا النهي، وأرجحها أن لا تتكلموا بأمر قبل أن يتكلم هو به، ولا تقطعوا في أمر إلا بنظره، ومن أوجه ترجيح هذا القول إنه يعم المؤمنين في كل مكان وحين، فتقيد المؤمنين بعد وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالانتهاء عن التقدم بين يديه يكون ممكناً بناء عليه، وأشارت الحلقة إلى اتفاق هذا النهي الرباني عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وفق هذا المعنى مع أمره سبحانه المتضمن في صريح عدد من آيات التنزيل، التي تأمر بطاعة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، اللتان تلتقيان في لزوم التقيد بالوحي الإلهي سواء بالقرآن الكريم، أم بما صدر عن النبي، عليه الصلاة والسلام، كونه لا ينطق عن الهوى، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يؤكد حقيقة تقيده بما يرده من الوحي، فقال عز وجل: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ...}[2]، والمؤمنون ملزمون بهذه الطاعة في شأنهم كله بعيداً عن المزاجيات والأهواء، عملاً بقوله عز وجل: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}[3]

---

1. النساء: 65.
2. الأنعام: 50.
3. الأحزاب: 36.

لزوم الاحتكام إلى الشرع الحنيف:

يتماشى مضمون الآية الكريمة 65 من سورة النساء، مع النهي الرباني عن التقدم بين يدي الله ورسوله، ومع مضامين الأوامر الإلهية بطاعة الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، فالله يقسم بجلاله لرسوله، عليه الصلاة والسلام، بأنه لا يؤمن أحد حتى يحكمه في الأمور جميعها، ثم ينقاد لما حكم به ظاهراً وباطناً، ويسلم لذلك تسليماً كلياً، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، وفي آية أخرى أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلي، والانقياد التام ظاهراً وباطناً لما حكم به، صلى الله عليه وسلم، حيث يقول تعالى: {إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا...}[1][2]

يقول الرازي في التفسير الكبير: اعلم أن قوله تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ} قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط، أولها قوله تعالى: {حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ} وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول، صلى الله عليه وسلم، لا يكون مؤمناً.[3]

فالرسول، صلى الله عليه وسلم، تلزم طاعته على هذا النحو بصفته يتلقى الأوامر والتشريع والدين بكليته من الوحي الإلهي، وهذا أمر واضح الأبعاد، جلي المعنى، لا يقبل المساومة وأنصاف المواقف، من هنا جاء الالتزام به على هذا النحو المتضمن قسم رب العزة بذاته على نفي الإيمان عمن لا يحتكم إلى شرع الله، الممثل بحكم الرسول، صلى الله عليه وسلم، وبعض المفسرين أول هذا بنفي كمال الإيمان، وليس نفيه بالكلية.

مناسبة نزول هذه الآية الكريمة:

جاء في صحيح الحديث الشريف، عن عُرْوَةَ عن عبد اللَّهِ بن الزُّبَيْرِ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ حدثه: (أَنَّ رَجُلًا من الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، في شِرَاجِ الْحَرَّةِ التي يَسْقُونَ بها النَّخْلَ، فقال الْأَنْصَارِيُّ: سَرِّحِ الْمَاءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عليه، فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لِلزُّبَيْرِ: اسق يا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِل

1. النور: 51.
2. أضواء البيان: 1 /246.
3. التفسير الكبير: 10 /131.

الْمَاءَ إلى جَارِكَ، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فقال: أنْ كان ابن عَمَّتِكَ؟! فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قال: اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ، حتى يَرْجِعَ إلى الْجَدْرِ، فقال الزُّبَيْرُ: والله إني لَأَحْسِبُ هذه الْآيَةَ نَزَلَتْ في ذلك {فلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}[1]

جاء في عمدة القاري: الشراج من الشرج، وهو مسيل الماء، وإنما أضيف إلى الحرة لكونه فيها، والحرة من الأرض الصلبة الغليظة، التي أفنيتها كلها حجارة سود نخرة، وقوله: (سَرِّحْ الْمَاءَ) أمر من التسريح، أي أرسله وسيِّبه، قوله: (يَمُرُّ) جملة وقعت حالاً من الماء، وقوله: (فَأَبَى عليه)؛ أي امتنع الزبير على الذي خاصمه من إرسال الماء، وإنما قال الأنصاري ذلك؛ لأن الماء كان يمر بأرض الزبير قبل أرض الأنصاري، فحبسه لإكمال سقي أرضه، ثم يرسله إلى أرض جاره، فالتمس منه الأنصاري تعجيل ذلك، فأبى عليه، وقوله: (إنْ كان ابن عَمَّتِكَ؟!) التقدير حكمت له بالتقديم لأجل أنه ابن عمتك، وكانت أم الزبير صفية بنت عبد المطلب، وهي عمة النبي، صلى الله عليه وسلم، وقوله: (فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم) أي تغير، وهذا كناية عن الغضب، وقوله: (ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ) ليس المراد منه أمسك الماء، بل أمسك نفسك عن السقي حتى يرجع إلى الجدر، أي حتى يصير إليه، والجدر من الجدار الذي هو الحائل بين المشارب، وهو الحواجز التي تحبس الماء، وقد أقسم الزبير أن هذه الآية نزلت في ذلك.[2]

فهذه وقفة أخرى عند أبعاد نهي الله عن التقدم بين يديه ويدي نبيه، صلى الله عليه وسلم، في ضوء فاتحة سورة الحجرات، التي نرجو أن تتيسر متابعة الوقوف عند المزيد من معانيها وجوانبها، والنصوص الشرعية الملتقية معها في المعنى والدلالة، ونسأله سبحانه أن يهدينا للعمل بما يرضيه، وأن يوفقنا لحسن طاعته، وطاعة رسوله محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب سكر الأنهار.
2. عمدة القاري: 12 /201 - 202.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
وتحريم التقدم بين يديه

الحلقة الثالثة

يخبر الله جل في علاه عن موقف المؤمنين إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، فيقول عز وجل: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى لزوم الاحتكام للشرع الحنيف، انسجاماً مع النهي الرباني عن التقدم بين يدي الله ورسوله، ومع مضامين الأوامر الإلهية بالخصوص، فقد أقسم الله سبحانه بجلاله لرسوله، عليه الصلاة والسلام، بأنه لا يؤمن أحد حتى يحكمه في الأمور جميعها، ثم ينقاد لما حكم به ظاهراً وباطناً، ويسلم لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، والرسول، صلى الله عليه وسلم، تلزم طاعته على هذا النحو بصفته يتلقى الأوامر والتشريع والدين بكليته من الوحي الإلهي، وهذا أمر واضح الأبعاد، جلي المعنى، لا يقبل المساومة، وأنصاف المواقف.

سمعنا وأطعنا:

تواصلاً مع الحديث عن لزوم التقيد بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، يأتي هذا الشاهد الرباني المتضمن في الآية الكريمة الحادية والخمسين من سورة النور، والمثبت نصها أعلاه، حيث يصف سبحانه موقف المؤمنين من الدعوة للاحتكام إلى الله ورسوله، بكلمتين هما: سمعنا وأطعنا، فالمؤمن المأمور بالطاعة المطلقة لله ورسوله، والمنهي عن التقدم بين يديهما، والموقن بلزوم الاحتكام لله ورسوله، والتسليم بحكمهما،

* النور:51.

يجـد لزامـاً عليـه الانصيـاع لحكمـه والتقيـد بـه، في الأحـوال كلهـا، عمـلاً بمنهـج السـلف الأخيـار، الـذي يخـبر عنـه الصحـابي الجليـل عُبَـادَة بـن الصَّامِـتِ، حيـث قـال: (بَايَعْنَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، عـلى السَّـمْعِ وَالطَّاعَـةِ، فِي الْمَنْشَـطِ وَالْمَكْـرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَـازِعَ الْأَمْـرَ أَهْلَـهُ، وَأَنْ نَقُـومَ، أو نَقُـولَ بِالْحَـقِّ حَيْثُمَـا كنـا، لَا نَخَـافُ فِي اللَّـهِ لومـة لَائِـمٍ) [1]

وفي الآيـة الكريمـة 51 مـن سـورة النـور إخبـار عـن تقيـد المؤمنـين بمنهـج السـمع والطاعـة للـه ورسـوله، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فموقفهـم محصـور في التسـليم الـكلي، والانقيـاد التـام ظاهـراً وباطنـاً لمـا حكـم بـه صـلى اللـه عليـه وسـلم [2]، ومعلـوم مـن الديـن بالـضرورة أن طاعـة الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، مـن طاعـة اللـه، مصداقـاً لقولـه عـز وجـل: {مَّـنْ يُطِـعِ الرَّسُـولَ فَقَـدْ أَطَـاعَ اللّـهَ وَمَـن تَـوَلَّى فَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ عَلَيْهِـمْ حَفِيظـاً} [3]

وفي سـور القـرآن الكريـم عـدد مـن الآيـات المخـبرة عـن تقيـد المؤمنـين بالسـمع والطاعـة للديـن، ففـي أواخـر سـورة البقـرة يقـول عـز وجـل: {آمَـنَ الرَّسُـولُ بِمَـا أُنـزِلَ إِلَيْـهِ مِـن رَّبِّـهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَـنَ بِاللّـهِ وَمَلآئِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ لاَ نُفَـرِّقُ بَـيْنَ أَحَـدٍ مِّـن رُّسُـلِهِ وَقَالُـواْ سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا غُفْرَانَـكَ رَبَّنَـا وَإِلَيْـكَ الْمَصِـيرُ} [4]

ومـن انحـراف بـني إسرائيـل تنكرهـم للسـمع والطاعـة، حيـث يقـول تعـالى: {مِـنَ الَّذِيـنَ هَـادُواْ يُحَرِّفُـونَ الْكَلِـمَ عَـن مَّوَاضِعِـهِ وَيَقُولُـونَ سَـمِعْنَا وَعَصَيْنَـا وَاسْـمَعْ غَـيْرَ مُسْـمَعٍ وَرَاعِنَـا لَيّـاً بِأَلْسِـنَتِهِمْ وَطَعْنـاً فِي الدِّيـنِ وَلَـوْ أَنَّهُـمْ قَالُـواْ سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا وَاسْـمَعْ وَانظُرْنَـا لَـكَانَ خَـيْراً لَّهُـمْ وَأَقْـوَمَ وَلَكِـن لَّعَنَهُـمُ اللّـهُ بِكُفْرِهِـمْ فَـلاَ يُؤْمِنُـونَ إِلاَّ قَلِيـلاً} [5]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس.
2. أضواء البيان: 1/ 246.
3. النساء:80.
4. البقرة:285.
5. النساء:46.

ويُذكرُ الله المسلمين بالعهد الذي قطعوه للنبي، صلى الله عليه وسلم، بأن يكون منهم السمع والطاعة، فيقول جل شأنه: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[1]

فالسمع والطاعة للدين الممثل للحق الثابت عن الله، وعن رسوله، صلى الله عليه وسلم، الذي لا ينطق عن الهوى، أمر لازم لا مناص منه، ولا مفر عنه، ليس لأحد من المؤمنين أن يسوف في التقيد به، والعمل بموجبه.

إنما الطاعة في المعروف:

قد يتساءل بعض الناس عن لزوم السمع والطاعة، في ضوء تقييد الطاعة بالمعروف، حسب ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: (...إنما الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ)[2]

والرد عن هذا التساؤل يتلخص في أن المعروف الذي تتقيد به الطاعة يخص طاعة البشر من غير الأنبياء، كالأمراء والمسؤولين والعلماء والآباء والأزواج، بينما طاعة الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، مطلقة؛ لأنها لا تكون إلا في المعروف، والعلماء استنتجوا هذا الفهم من ذكر لفظ الطاعة عند الأمر بها لله، وذكرها أيضاً عند الأمر بها للرسول، صلى الله عليه وسلم، في الآية الكريمة المتضمنة لذلك، بينما ذكر الأمر بطاعة أولي الأمر في الآية الكريمة نفسها من غير تكرار ذكر لفظ الطاعة، حيث يقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}[3]

جاء في التفسير أن تصدير الشرطية بالفاء في قوله تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ..} لترتبها على ما قبلها، فإن بيان حكم طاعة أولي الأمر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة

1. المائدة:7.
2. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية.
3. النساء:59.

الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يسـتدعى بيـان حكمهـا عنـد المخالفـة، أي إن اختلفتـم أنتـم وأولـو الأمـر منكـم في أمـر مـن أمـور الديـن، فارجعـوا فيـه إلى كتـاب اللـه والرسـول؛ أي إلى سـنته.[*]

فهـذه وقفـة أخـرى عنـد أبعـاد نهـي اللـه عـن التقـدم بـين يديـه ويـدي نبيـه، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في ضـوء فاتحـة سـورة الحجـرات، الـتي نرجـو أن تتيـسر متابعـة الوقـوف عنـد المزيـد مـن معانيهـا وجوانبهـا، والنصـوص الشرعيـة الملتقيـة معهـا في المعـنى والدلالـة، ونسـأله سـبحانه أن يهدينـا للعمـل بمـا يرضيـه، وأن يوفقنـا لحسـن طاعتـه، وطاعـة رسـوله محمـد، عليـه الصـلاة والسـلام، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، وعـلى مـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* تفسير أبي السعود: 2/ 193.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
وتحريم التقدم بين يديه

الحلقة الرابعة

يأمر الله المؤمنين في كل مكان وحين بالعمل وفق أوامر الرسول، صلى الله عليه وسلم، ونواهيه، فيقول عز وجل:{...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}(*)

تعرضت الحلقة السابقة إلى وصف موقف المؤمنين من الدعوة للاحتكام إلى الله ورسوله، بكلمتين هما: سمعنا وأطعنا، فالمؤمن المأمور بالطاعة المطلقة لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، والمنهي عن التقدم بين يديهما، والموقن بلزوم الاحتكام لله ورسوله، والتسليم بحكمهما، يجد لزاماً عليه الانصياع لحكمهما والتقيد به، في الأحوال كلها، عملاً بمنهج السلف الأخيار بالخصوص.

ومعلوم من الدين بالضرورة أن طاعة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من طاعة الله، وفي سور القرآن الكريم عدد من الآيات المخبرة عن تقيد المؤمنين بالسمع والطاعة لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، ومن عتب الله على بني إسرائيل تنكرهم للسمع والطاعة، ويُذكر الله المسلمين بالعهد الذي قطعوه للنبي، صلى الله عليه وسلم، بأن يكون منهم السمع والطاعة. وبالنسبة إلى تقييد الطاعة بالمعروف، فذلك يخص طاعة البشر من غير الأنبياء، كالأمراء والمسؤولين والعلماء والآباء والأزواج، بينما طاعة الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، مطلقة؛ لأنها لا تكون إلا في المعروف.

* الحشر:7.

الأخذ بمنهج الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الفعل والترك:

في الآية الكريمة السابعة من سورة الحشر، والمثبت نصها أعلاه، يأمر سبحانه بالعمل بأوامر النبي، صلى الله عليه وسلم، وبالانتهاء عما ينهى عنه، وهذا بلا ريب ينسجم مع الأمر الإلهي للمؤمنين بأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، حسب المعنى المتبنى لهذا الأمر، والذي تضافرت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية بصيغها المتعددة، ومناسباتها المختلفة، وسياقاتها العديدة، في التأكيد عليه، يقول ابن كثير: أي مهما أمركم به، فافعلوه، ومهما نهاكم عنه، فاجتنبوه، فإنه يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر. [1]

وجاء في التفسير أن لفظ هذه الآية عام في أوامر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أو نواهيه، ولذلك استدل بها عبد الله بن مسعود على المنع من لبس المحرم المخيط، ولعن الواشمة. [2]

فعن عبد اللَّهِ، قال: (لَعَنَ اللهِ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُوتَشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ، فَبَلَغَ ذلك امْرَأَةً من بَنِي أَسَدٍ، يُقَالُ لها أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فقالت: إنه بَلَغَنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، فقال: ومالي لا أَلْعَنُ من لَعَنَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَمَنْ هو في كِتَابِ اللَّهِ، فقالت: لقد قرأت ما بين اللَّوْحَيْنِ، فما وَجَدْتُ فيه ما تَقُولُ، قال: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لقد وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: {وما آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نَهَاكُمْ عنه فَانْتَهُوا}؟ قالت: بَلَى، قال: فإنه قد نهى عنه...). [3]

اتباع الرسول، صلى الله عليه وسلم، يستجلب محبة الله:

قال تعالى: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [4]

جاء في أضواء البيان، أنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة أن اتّباع نبيه موجب لمحبته

1. تفسير ابن كثير: 4 /337.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 108.
3. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الحشر، باب: {وما آتاكم الرسول فخذوه} (الحشر: 7).
4. آل عمران:31.

جل وعلا ذلك المتبع، وذلك يدل على أن طاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، هي عين طاعته تعالى، ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، هي اتّباعه صلى الله عليه وسلم، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر، إذ لو كان محباً له لأطاعه، ومن المعلوم عند العامة، أن المحبة تستجلب الطاعة.[1]

يقول أبو السعود في تفسيره: المحبة ميل النفس إلى الشيء؛ لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقر بها إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله عز وجل، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو من غيره، فهو من الله، وبالله، وإلى الله، لم يكن حبه إلا لله، وفي الله، وذلك مقتضى إرادة طاعته، والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة، وجعلت مستلزمة لاتّباع الرسول، صلى الله عليه وسلم، في عبادته، والحرص على مطاوعته.[2]

ومن أدلة جزاء محبة الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، ما جاء عن أَنَسِ بن مَالِكٍ: (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبي، صلى الله عليه وسلم، مَتَى السَّاعَةُ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: ما أَعْدَدْتَ لها؟ قال: ما أَعْدَدْتُ لها من كَثِيرِ صَلَاةٍ ولا صَوْمٍ ولا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قال أنت مع من أَحْبَبْتَ).[3]

فهذه وقفة أخرى عند أبعاد نهي الله عن التقدم بين يديه ويدي نبيه، صلى الله عليه وسلم، في ضوء فاتحة سورة الحجرات، التي نرجو أن تتيسر متابعة الوقوف عند المزيد من معانيها وجوانبها، والنصوص الشرعية الملتقية معها في المعنى والدلالة، ونسأله سبحانه أن يهدينا للعمل بما يرضيه، وأن يوفقنا لحسن طاعته، وطاعة رسوله محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. أضواء البيان: 1 /199.
2. تفسير أبي السعود: 2/ 24.
3. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
وتحريم التقدم بين يديه

الحلقة الخامسة

يأمر الله المؤمنين في كل مكان وحين بالاستجابة له ولرسوله، صلى الله عليه وسلم، فيقول جل ذكره: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [1]

تعرضت الحلقة السابقة لأمر الله عباده المؤمنين بالعمل وفق أوامر الرسول، صلى الله عليه وسلم، ونواهيه، في الفعل والترك، وذلك ينسجم مع الأمر الإلهي للمؤمنين بأن لا يقدموا بين يدي الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، حسب المعنى المتبنى لهذا الأمر، واتّباع الرسول، صلى الله عليه وسلم، يستجلب محبة الله، حسب بيانه سبحانه في القرآن الكريم، ومن أدلة جزاء محبة الله والرسول، صلى الله عليه وسلم، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَه: (مَتَى السَّاعَةُ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: ما أَعْدَدْتَ لها؟ قال: ما أَعْدَدْتُ لها من كَثِيرِ صَلَاةٍ ولا صَوْمٍ ولا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قال أنت مع من أَحْبَبْتَ). [2]

الاستجابة لله وللرسول، صلى الله عليه وسلم:

الآية الرابعة والعشرون من سورة الأنفال، والمثبت نصها آنفاً، يأمر الله فيها بالاستجابة له سبحانه وللرسول، صلى الله عليه وسلم، والمراد بالاستجابة هنا الطاعة والانقياد والامتثال، جاء في التفسير الكبير، أن معنى {اسْتَجِيبُواْ} أجيبوا، وأكثر الفقهاء على أن ظاهر الأمر للوجوب، وتمسكوا بهذه الآية على صحة قولهم من وجهين:

الوجه الأول: أن كل من أمره الله بفعل فقد دعاه إلى ذلك الفعل، وهذه الآية تدل على أنه لا بد من الإجابة في كل ما دعاه الله إليه، ويتأكد هذا بأن قوله

1. الأنفال:24.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل.

تعالى بعد ذلك: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[1] جار مجرى التهديد والوعيد، وذلك لا يليق إلا بالإيجاب.[2]

ووجه الاستدلال الثاني بهذه الآية على ثبوت هذا المطلوب، ما رواه أبو سَعِيدِ بن الْمُعَلَّى، قال: كنت أُصَلِّي في الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، فلم أُجِبْهُ، فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، إني كنت أُصَلِّي، فقال: (أَلَمْ يَقُل الله: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}؟ ثُمَّ قال لي: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ في الْقُرْآنِ قبل أَنْ تَخْرُجَ من الْمَسْجِدِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فلما أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قلت له: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ في الْقُرْآنِ؟ قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الذي أُوتِيتُهُ)[3]

ووجه الاستدلال به، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لما دعاه فلم يجبه لامه على ترك الإجابة، وتمسك في تقرير ذلك اللوم بهذه الآية، فلولا دلالة هذه الآية على الوجوب، وإلا لما صح ذلك الاستدلال.[4]

وأمر الله بالاستجابة له قبل فوات الأوان، فقال عز وجل: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم من ملْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ}[5]

يبين الزمخشري، أن (من) صلة لا مردّ، أي لا يرده الله بعدما حكم به، أو أنها صلة يأتي، أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على ردّه، والنكير الإنكار، أي ما لكم من مخلص من العذاب، ولا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه، ودوّن في صحائف أعمالكم.[6]

ومن الاستجابة لله طاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، باتباع سنته، فطاعته عليه الصلاة والسلام من طاعة الله، والاستجابة له من الاستجابة لربه جل في علاه، مصداقاً

---

1. الأنفال: 24.
2. التفسير الكبير: 15/ 117 - 118.
3. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب.
4. التفسير الكبير: 15/ 117 - 118.
5. الشورى:47.
6. الكشاف: 4 /236.

لقوله عز وجل: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً}[1]

الحسنى للمستجيبين لربهم وثناؤه عليهم:

وعد الله المستجيبين له الحسنى، فقال عز وجل:{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[2]

وأثنى سبحانه على الذين استجابوا لأمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، بالخروج إلى حمراء الأسد بعد الانتهاء من غزوة أحد، رغم الجراح التي أصابتهم فيها، فقال جل ذكره: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ }[3]

كما أثنى سبحانه على المستجيبين له في سورة الشورى، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}[4]

يبين الرازي أن الاستجابة هنا تعني تمام الانقياد، وأن الأقرب عنده أن يحمل هذا على الرضا بقضاء الله من صميم القلب، وأن لا يكون في قلبه منازعة في أمر من الأمور[5]، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}[6]

فهذه وقفة أخرى عند أبعاد نهي الله عن التقدم بين يديه ويدي نبيه، صلى الله عليه وسلم، في ضوء فاتحة سورة الحجرات، التي نرجو أن تتيسر متابعة الوقوف عند المزيد من معانيها وجوانبها، ونسأله سبحانه أن يهدينا للعمل بما يرضيه، وأن يوفقنا لحسن طاعته، وطاعة رسوله محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. النساء:80.
2. الرعد: 18.
3. آل عمران: 172.
4. الشورى: 38.
5. التفسير الكبير، 27 /151 - 152.
6. النساء:65.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم وتحريم التقدم بين يديه

الحلقة السادسة والأخيرة

يبين الله في قرآنه الكريم، أنه ورسوله، صلى الله عليه وسلم، أحق بالإرضاء، فيقول عز وجل:{...يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ}[1]

تعرضت الحلقة السابقة لأمر الله بالاستجابة له سبحانه، وللرسول، صلى الله عليه وسلم، قبل فوات الأوان، وذلك بالطاعة والانقياد والامتثال، ومن الاستجابة لله طاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، واتباع سنته، ووعد الله المستجيبين له الحسنى، وأثنى على الذين استجابوا للأمر، بالخروج إلى حمراء الأسد فور الانتهاء من غزوة أحد، رغم الجراح التي أصابتهم، كما أثنى سبحانه على المستجيبين له في سورة الشورى، وبين الرازي أن الاستجابة هنا تعني تمام الانقياد.

الأحق بالإرضاء:

على درب النهي الرباني للمؤمنين عن التقدم بين يديه سبحانه، وبين يدي رسوله، صلى الله عليه وسلم، يبين سبحانه أنه ورسوله، صلى الله عليه وسلم، أحق بالإرضاء من قبل المؤمنين، كما في نص الآية الكريمة، المثبت نصها أعلاه، وفيها انتقاد صريح لحلف أدعياء الإيمان لإرضاء المؤمنين، خلافاً لحقيقة حالهم، وكان الأولى بهم لو كانوا صادقين في إيمانهم أن يحرصوا على نيل رضا اللّه وَرَسُولهُ، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن، أو يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتون المؤمنين، فيعتذرون إليهم، ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم، ويرضوا عنهم، فقيل لهم: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون، فأحق من أرضيتم الله ورسوله، بالطاعة والوفاق، وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله، صلى الله عليه وسلم، فكانا في حكم مرضيّ واحد.[2]

---

1. التوبة:62.
2. الكشاف:2/ 272.

يبين الرازي في التفسير الكبير، أن هذا نوع آخر من قبائح أفعال المنافقين، وهو إقدامهم على اليمين الكاذبة، قيل هذا بناء على ما تقدم، يعني يؤذون النبي ويسيؤون القول فيه، ثم يحلفون لكم، وقيل: نزلت في رهط من المنافقين، تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة أتوه واعتذروا وحلفوا، ففيهم نزلت الآية، والمعنى أنهم حلفوا على أنهم ما قالوا ما حكي عنهم ليرضوا المؤمنين بيمينهم، وكان من الواجب أن يرضوا الله بالإخلاص والتوبة، لا بإظهار ما يُسرون خلافه، ونظيره قوله: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}[1]، وقوله سبحانه: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}[2]

وقوله: {إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ}[3] فيه قولان:

الأول: إن كانوا مؤمنين على ما ادعوا.

والثاني: أنهم كانوا عالمين بصحة دين الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلا أنهم أصروا على الكفر حسداً وعناداً، فلهذا المعنى قال تعالى: {إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} وفي الآية دلالة على أن رضا الله لا يحصل بإظهار الإيمان ما لم يقترن به التصديق بالقلب.[4]

رضي الله عن المبايعين تحت الشجرة:

بخلاف المنافقين، فإن المؤمنين الصادقين في مواقفهم ظاهراً وباطناً، وهم الذين لا يقدمون بين يدي الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، يكافئهم الله برضاه سبحانه، مصداقاً لقوله عز وجل: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}[5]، والمقصود بالمبايعة المذكورة في هذه الآية الكريمة تلك التي

1. البقرة:14.
2. البقرة:76.
3. التوبة: 62.
4. التفسير الكبير:16/ 95.
5. الفتح:18.

كانت من المؤمنين عام الحديبية، والتي سميت ببيعة الرضوان، وقد ذكرت هذه البيعة في عدد من الروايات والأخبار الصحيحة، ومنها ما روي عن الْبَرَاءِ، رضي الله عنه، قال: (تَعُدُّونَ أَنْتُم الفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وقد كان فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يوم الْحُدَيْبِيَةِ).[1]

وبالنسبة إلى فحوى البيعة، فقد ذُكر في بعض الروايات أنها كانت على الصبر، وفي بعضها أنها كانت على الموت، فعن سَلَمَةَ، رضي الله عنه، أنه سئل: (على أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تُبَايِعُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قال: على الْمَوْتِ).[2]

وعن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، (قال: فسألت نافعاً على أَيِّ شَيْءٍ بَايَعَهُمْ؟ على الْمَوْتِ؟! قال: لَا، بَلْ بَايَعَهُمْ على الصَّبْرِ).[3]

وبايع الرسول، صلى الله عليه وسلم، بعض أصحابه على الإسلام والجهاد، فعن مُجَاشِع، رضي الله عنه، قال: (أَتَيْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، أنا وَأَخِي، فقلت: بَايِعْنَا على الْهِجْرَةِ، فقال: مَضَت الْهِجْرَةُ لِأَهْلِهَا، فقلت: عَلَامَ تُبَايِعُنَا؟ قال: على الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ)[4]

وقد تباهى الأنصار بمبايعتهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فعن حُمَيْدٍ، قال: سمعت أَنَسًا، رضي الله عنه، يقول:(كانت الْأَنْصَارُ يوم الْخَنْدَقِ تَقُولُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا على الْجِهَادِ ما حَيِينَا أَبَدًا فَأَجَابَهُم النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: اللهم لَا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة، فَأَكْرِمِ الْأَنْصَارَ والمهاجره).[5]

وبهذه الوقفة نختم في هذه المرحلة الحديث عن أبعاد نهي الله عن التقدم بين يديه ويدي نبيه، صلى الله عليه وسلم، في ضوء فاتحة سورة الحجرات، وغيرها من الآيات الكريمة ذات الصلة، والأحاديث والأخبار المستقاة من سنة نبينا محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا...
3. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا...
4. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا...
5. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا...

الفصل الرابع / ديات وجنايات

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الأولى	89
.2	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الثانية	92
.3	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الثالثة	95
.4	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الرابعة	98
.5	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الخامسة	102
.6	يحذر من اقتراف جرائم القتل -الحلقة السادسة والأخيرة	105
.7	يحذر من الوأد الخفي - الحلقة الأولى	108
.8	يحذر من الوأد الخفي - الحلقة الثانية والأخيرة	111

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحذر من اقتراف جرائم القتل

الحلقة الأولى

عـن ابـن عُمَـرَ، رضي اللـه عنهمـا، قـال: قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (لـن يَـزَالَ الْمُؤْمِـنُ فِي فُسْـحَةٍ مِـن دِينِـهِ مـا لـم يُصِـبْ دَمًـا حَرَامًـا) [1]

يحـذر الرسـول الأسـوة، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في حديثـه الشريـف هـذا مـن ارتـكاب جريمـة مـن أشـنع الجرائـم وأبشـعها وأظلمهـا، تلكـم هـي جريمـة القتـل، الـتي تزهـق بهـا أرواح بريئـة، وتسـفك بهـا دمـاء أمـر اللـه بحفظهـا وصونهـا، فمـن الـضرورات الخمـس في ديننـا الحنيـف حفـظ النفـس، واللـه تعـالى بكّـت الذيـن يقتلـون النفـس بغـير حـق، بتضخيـم حجـم جنايتهـم، وكأن مقترفهـا قتـل النـاس جميعـاً ، فقـال عـز وجـل: {مِـنْ أَجْـلِ ذَلِـكَ كَتَبْنَـا عَـلَى بَـنِي إِسْرَائِيـلَ أَنَّـهُ مَـن قَتَـلَ نَفْسـاً بِغَـيْرِ نَفْـسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّـاسَ جَمِيعـاً وَمَـنْ أَحْيَاهَـا فَكَأَنَّمَـا أَحْيَـا النَّـاسَ جَمِيعـاً ...} [2]

معلـوم أن هـذا التنفـير مـن جرائـم القتـل، جـاء تعقيبـاً عـلى حادثـة القتـل الأولى في تاريـخ البشريـة، الـتي قتـل خلالهـا أحـد ابـني آدم أخـاه، ومـن اللافـت للانتبـاه، أن النفـس المقتولـة أو المحيـاة، المذكـورة في الآيـة الكريمـة ذكـرت مطلقـة، دون تقييـد، ممـا يعـني أنهـا تشـمل أي نفـس بشريـة، سـواء أكانـت مسـلمة أم غيرهـا، صغـيرة أم كبـيرة، مـن جنـس الرجـال أم النسـاء، فقتـل النفـس عـلى إطلاقهـا بغـير حـق، يسـاوي وفـق منطـوق هـذه الآيـة الكريمـة ومفهومهـا الواضـح قتل النـاس جميعـاً، وإحياؤهـا يعـادل إحيـاء النـاس جميعـاً.

ومـن أدلـة تفظيـع جريمـة قتـل غـير المسـلم دون حق، قـول النبي، صـلى الله عليه وسـلم:

---

1. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب منه.
2. المائدة:32.

(مـن قَتَـلَ نَفْسًـا مُعَاهَـدًا لـم يَـرِحْ رَائِحَـةَ الْجَنَّـةِ، وَإِنَّ رِيحَهَـا لَيُوجَـدُ مـن مَسِـيرَةِ أَرْبَعِـينَ عَامًـا) [1]

ومـن صـور القتـل المقيـت الـذي بكّـت اللـه مقترفيـه، إزهـاق روح المولـودة الأنـثى، قـال تعـالى: {وَإِذَا الْمَـوْءُودَةُ سُـئِلَتْ* بِـأَيِّ ذَنْـبٍ قُتِلَـتْ}[2]، إضافـة إلى نهيـه الشـديد عـن قتـل الولـد: {وَلَا تَقْتُلُـوا أَوْلَادَكُـمْ مِـنْ إِمْـلَاقٍ}. [3]

تعظيم قتل النفس وإحيائها:

يبـين الـرازي أن المـراد مـن إحيـاء النفـس تخليصهـا مـن المهلـكات؛ مثـل الحـرق والغـرق والجـوع المفـرط، والـبرد والحـر المفرطـين.[4]

جاء في التسهيل لعلوم التنزيل: أن تمثيل قاتل الواحد بقاتل الجميع يتصور من ثلاث جهات:

إحداها: القصاص، فإن القصاص في قاتل الواحد والجميع سواء.

الثانية: انتهاك الحرمة، والإقدام على العصيان.

والثالثـة: الإثـم والعـذاب الأخـروي، قـال مجاهـد: وعـد اللـه قاتـل النفـس بجهنـم، والخلـود فيهـا، والغضـب واللعنـة، والعـذاب العظيـم، فلـو قتـل النـاس جميعهـم لـم يـزد عـلى ذلـك، وهـذا الوجـه هـو الأظهـر؛ لأن القصـد بالآيـة تعظيـم قتـل النفـس، والتشـديد فيـه؛ لينزجـر النـاس عنـه، وكذلـك الثـواب في إحيائهـا كثـواب إحيـاء الجميـع، لتعظيـم الأمـر والترغيـب فيـه، وإن إحياءهـا هـو إنقاذهـا مـن المـوت، كإنقـاذ الحريـق، أو الغريـق، وشـبه ذلـك، وقيـل: بـترك قتلهـا، وقيـل: بالعفـو إذا وجـب القصـاص. [5]

ومـن تفسـير البيضـاوي لتعظيـم قتـل النفـس وإحيائهـا، حسـب مـا جـاء في الآيـة الكريمـة، أن قتـل الواحـد وقتـل الجميـع سـواء في اسـتجلاب غضـب اللـه سـبحانه وتعـالى، والعـذاب العظيـم، ومـن أحياهـا فكأنمـا أحيـا النـاس جميعـا؛ أي ومـن تسـبب في بقـاء حياتهـا بعفـو أو منـع مـن القتـل، أو اسـتنقاذ مـن بعـض أسـباب الهلكـة، فكأنمـا فعـل ذلـك بالنـاس جميعـاً، والمقصـود منـه تعظيـم قتـل النفـس وإحيائهـا في القلـوب، ترهيبـاً مـن التعـرض لهـا، وترغيبـاً في المحامـاة عليهـا.[6]

1. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم.
2. التكوير: 8 - 9.
3. الأنعام: 151.
4. التفسير الكبير: 11 /168.
5. التسهيل لعلوم التنزيل: 1 /175.
6. تفسير البيضاوي: 2 /319.

ويستخلص الزمخشري فائدة من تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب، فيقول: ليشمئز الناس عن الجسارة عليها، ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها؛ لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعاً، عظم ذلك عليه، فثبطه، وكذلك الذي أراد إحياءها.[1]

سفك الدم الحرام:

الحديث الصحيح أعلاه يتماشى مع التنفير الشديد من القتل المتضمن في الآية الكريمة من سورة المائدة، ومعنى أن المؤمن لا يَزَالَ فِي فُسْحَةٍ من دِينِهِ، ما لم يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، أي يبقى في سعة، منشرح الصدر، وإذا قتل نفساً بغير حق صار منحصراً ضيقاً، لما أوعد الله عليه ما لم يوعد على غيره، وقوله: (من دينه) كذا في رواية الأكثرين، وفي رواية (من ذنبه)، فمعنى الأول أنه يضيق عليه دينه؛ بسبب الوعيد لقاتل النفس عمداً بغير حق، ومعنى الثاني أنه يصير في ضيق بسبب ذنبه.[2]

جاء في كشف المشكل: المعنى أنه في أي ذنب وقع كان له في الدين والشرع مخرج، إلا القتل فإن أمره صعب.[3]

وعن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ، قال: (إِنَّ من وَرَطَاتِ الْأُمُورِ التي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فيها، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ)[4]

فهذه وقفات مختارة عند ما تيسر ذكره من المنفرات الواضحة، والمسندة بالدليل الشرعي، من اقتراف جرائم القتل الظالم للنفس، المصونة من الاستباحة، وسفك الدم، عسى أن يكون في التذكير بها ذكرى وموعظة لكل من تسول له نفسه ارتكاب جرائم القتل، أو التشجيع عليها، أو المساهمة في التخطيط لها وتنفيذها، آملين متابعة الوقوف عند مزيد من هذه الوقفات المستنتجة من هدي القرآن الكريم، وحديث خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الكشاف: 1 /661.
2. عمدة القاري: 24 /31.
3. كشف المشكل: 2/ 590.
4. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب منه.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحذر من اقتراف جرائم القتل

الحلقة الثانية

عـن جَرِيـرٍ، أَنَّ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال لـه في حَجَّـةِ الْـوَدَاعِ: (اسْـتَنْصِت النـاس، فقـال: لَا تَرْجِعُـوا بَعْـدِي كُفَّـارًا يَـضْرِبُ بَعْضُكُـمْ رِقَـابَ بَعْـضٍ)(*)

تـم في الحلقـة السـابقة التحذيـر مـن اقـتراف جرائـم القتـل، الـتي تزهـق بهـا أرواح بريئـة، وتسـفك بهـا دمـاء أمـر اللـه بحفظهـا وصونهـا، واللـه تعـالى بكّـت الذيـن يقتلـون النفـس بغـير حـق، بتضخيـم حجـم جنايتهـم، وكأن مقترفهـا قتـل النـاس جميعـاً، فقتـل النفـس عـلى إطلاقهـا بغـير حـق يسـاوي قتـل النـاس جميعـاً.

وإحيـاء النفـس يعـادل إحيـاء النـاس جميعـاً، وذلـك بتخليصهـا من المهلـكات؛ مثـل الحرق والغـرق، ومـن فوائـد تعظيـم قتـل النفـس وإحيائهـا في القلـوب: ليشـمئز النـاس عـن الجسـارة عليهـا، ويتراغبـوا في المحامـاة عـلى حرمتهـا.

ومعـنى أن المؤمـن لا يَـزَالَ في فُسْـحَةٍ مـن دِينِـهِ، مـا لـم يُصِـبْ دَمًـا حَرَامًـا؛ أي يبقـى في سـعة منـشرح الصـدر، وإذا قتـل نفسـاً بغـير حـق صـار منحـصراً ضيقـاً، لمـا أوعـد اللـه عليـه مـا لـم يوعـد عـلى غـيره، فـأي ذنـب وقـع كان لـه في الديـن والـشرع مخـرج، إلا القتـل فـإن أمـره صعـب.

التحذير من الاقتتال:

في حديـث جَرِيـرٍ أعـلاه يأمـره النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، باسـتنصات النـاس في حَجَّـةِ الْـوَدَاعِ لأمـر مهـم سـيلقيه عـلى سـمعهم، ليعقلـوه، ويلتزمـوا بتنفيـذه، فيقـول لجمهـور السـامعين المسـتنصتين، ولمـن سـيأتي مـن بعدهـم مـن المسـلمين: (لَا تَرْجِعُـوا بَعْـدِي كُفَّـارًا يَـضْرِبُ بَعْضُكُـمْ رِقَـابَ بَعْـضٍ) فقتـل المسـلم للمسـلم سـواء عـلى المسـتوى الفـردي، أم الجماعـي مـن خـلال

* صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء.

تناحر الفرق والفئات، مؤداه إلى تبوأ أسوأ مبوأ، إذ الرجوع إلى الكفر تقهقر للردى، يربأ المسلم بنفسه عنه، لكن بعض المسلمين يبدو أن هذا التحذير لم يجد لديهم الصدى الشرعي المطلوب، بدليل استسهالهم قتل إخوانهم، والاقتتال معهم، في حروب يرعاها الشيطان، ويؤجج نارها الأشرار، وقد تخللت حجة الوداع خطبة للرسول، صلى الله عليه وسلم، نبه فيها إلى عظم حرمة الدماء، حيث شبه حرمتها بحرمة يوم النحر، وشهر ذي الحجة الحرام، والبلد الحرام مكة المكرمة، فعن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، خَطَبَ الناس يوم النَّحْرِ، فقال: يا أَيُّهَا الناس، أَيُّ يَوْمٍ هذا؟ قالوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قال: فَأَيُّ بَلَدٍ هذا؟ قالوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قال: فَأَيُّ شَهْرٍ هذا؟ قالوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قال: فإن دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فقال: اللهم هل بَلَّغْتُ؟ اللهم هل بَلَّغْتُ؟ قال ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: فَوَالَّذِي نَفْسِي بيده إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إلى أُمَّتِهِ، فَلْيُبْلِغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)[1]

القاتل والمقتول في النار:

من أشد المنفرات من الاقتتال إضافة إلى تحذير أطرافه من الرجوع إلى الكفر والضلال، حسب ما جاء في خطبة الوداع، بيان أن مصير المقتتلين سيكون النار، فعن الْأَحْنَفِ ابن قَيْسٍ، قال: (ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هذا الرَّجُلَ، فَلَقِيَنِي أبو بَكْرَةَ، فقال: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قلت: أَنْصُرُ هذا الرَّجُلَ، قال: ارْجِعْ، فَإِنِّي سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: إذا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ في النَّارِ، فقلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، هذا الْقَاتِلُ، فما بَالُ الْمَقْتُولِ؟! قال: إنه كان حَرِيصًا على قَتْلِ صَاحِبِهِ)[2]

وفي رواية صحيحة عن الْحَسَنِ، قال: (خَرَجْتُ بِسِلَاحِي لَيَالِيَ الْفِتْنَةِ، فَاسْتَقْبَلَنِي أبو بَكْرَةَ، فقال: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قلت: أُرِيدُ نُصْرَةَ ابن عَمِّ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال:

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما}(الحجرات:9).

قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: إذا تَوَاجَـهَ الْمُسْـلِمَانِ بِسَـيْفَيْهِمَا، فَكِلَاهُمَـا مـن أَهْـلِ النَّـارِ، قِيـلَ: فَهَـذَا الْقَاتِـلُ، فمـا بَـالُ الْمَقْتُـولِ؟! قـال: إنـه أَرَادَ قَتْـلَ صَاحِبِـهِ)[1]

جـاء في عـون المعبـود، عـن القسـطلاني في شرح المـراد بالتقـاء المسـلميْنِ بسـيفيهما أي ضرب كل واحـد منهمـا وجـه الآخـر؛ أي ذاتـه، فالقاتـل والمقتـول في النـار ؛ أي يسـتحقانها وقـد يعفـو اللـه عنهمـا، أو ذلـك محمـول عـلى مـن اسـتحل ذلـك، (هـذا القاتـل)؛ أي يسـتحق النـار، (فمـا بـال المقتـول؟)؛ أي فمـا ذنبـه حـتى يدخلهـا؟ إنـه أراد قتـل صاحبـه، وفي روايـة البخـاري، إنـه كان حريصـاً عـلى قتـل صاحبـه.

قـال القسـطلاني: وبـه اسـتدل مـن قـال بالمؤاخـذة بالعـزم، وإن لـم يقـع الفعـل، وأجـاب مـن لـم يقـل بذلـك أن في هـذا فعـلاً وهـو المواجهـة بالسـلاح، ووقـوع القتـال، ولا يلـزم مـن كـون القاتـل والمقتـول في النـار أن يكونـا في مرتبـة واحـدة، فالقاتـل يعـذب عـلى القتـال، وعـلى أنـه قاتـل، والمقتـول يعـذب عـلى القتـال فقـط، فلـم يقـع التعذيـب عـلى العـزم المجـرد؟[2]

فهـذه وقفـات أخـرى عنـد مـا تيـسر ذكـره مـن المنفـرات الواضحـة والمسـندة بالدليـل الشرعـي، مـن اقـتراف جرائـم القتـل الظالـم للنفـس المصونـة مـن الاسـتباحة وسـفك الـدم، عـسى أن يكـون في التذكـير بهـا ذكـرى وموعظـة لـكل مـن تسـول لـه نفسـه ارتـكاب جرائـم القتـل، أو التشـجيع عليهـا، أو المسـاهمة في التخطيـط لهـا وتنفيذهـا، آملـين متابعـة الوقـوف عنـد مزيـد مـن هـذه الوقفـات، المسـتنتجة مـن هـدي القـرآن الكريـم، وحديـث خاتـم النبيـين والمرسـلين محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما.
2. عون المعبود: 11 /235.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحذر من اقتراف جرائم القتل

الحلقة الثالثة

عـن أبي هُرَيْـرَةَ، قـال: قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (وَالَّـذِي نَفْـسِي بيـده، لَا تَذْهَـبُ الدُّنْيَـا حـتى يَـأْتِيَ عـلى النـاس يَـوْمٌ لَا يَـدْرِي الْقَاتِـلُ فِيـمَ قَتَـلَ، ولا المَقْتُـولُ فِيـمَ قُتِـلَ، فَقِيـلَ كَيْـفَ يَكُـونُ ذلـك؟ قـال: الْهَـرْجُ، الْقَاتِـلُ وَالْمَقْتُـولُ في النَّـارِ)(*)

تـم في الحلقـة السـابقة التحذيـر مـن الاقتتـال، فالرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أمـر في حجـة الـوداع باسـتنصات النـاس لأمـر مهـم سـيلقيه عـلى سـمعهم، فحذرهـم مـن أن يرْجِعُـوا بَعْـدِه كُفَّـارًا يَـضْرِبُ بَعْضُهـمْ رِقَـابَ بَعْـضٍ، فقتـل المسـلم للمسـلم سـواء عـلى المسـتوى الفردي، أم الجماعـي مـن خـلال تناحـر الفـرق والفئـات، مـؤاده إلى تبـوأ أسـوأ مبـوأ، لكـن بعـض المسـلمين يبـدو أن هـذا التحذيـر لـم يجـد لديهـم الصـدى الشرعـي المطلـوب، بدليـل استسـهالهم قتـل إخوانهـم، والاقتتـال معهـم، في حـروب يرعاهـا الشـيطان، ويؤجـج نارهـا الأشرار، وقـد تخللـت حجـة الـوداع خطبـة للرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، نبـه فيهـا إلى عظـم حرمـة الدمـاء، حيـث شـبه حرمتهـا بحرمـة يـوم النحـر، وشـهر ذي الحجـة الحـرام، والبلـد الحـرام مكـة المكرمـة.

ومـن أشـد المنفـرات مـن الاقتتـال، إضافـة إلى تحذيـر أطرافـه مـن الرجـوع إلى الكفـر والضـلال، حسـب مـا جـاء في خطبـة الـوداع، أن مصـير القاتـل والمقتـول سـيكون النـار، وذلـك محمـول عـلى مـن اسـتحل الاقتتـال.

الْهَرْجُ من علامات الساعة:

مـن علامـات السـاعة الـتي أخـبر الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، عنهـا، انتشـار الهـرج، ولمـا سـئل عـن المـراد بالهـرج، بـين أنـه القتـل، وفي حديـث أبي هريـرة، رضي اللـه عنـه، أعـلاه، وصـف عليـه الصـلاة والسـلام، معلمـاً مـن المعالـم الغريبـة لحالـة الهـرج، مبينـاً أن القاتـل فيهـا

* صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ....

لَا يَـدْرِي فِيـمَ قَتَـلَ، ولا الْمَقْتُـولُ فِيـمَ قُتِـلَ.

وفي روايـات صحيحـة أخـرى ذكـر الرسـول، صـلى اللـه عليـه وسـلم، الهـرج مـع أمـور أخـرى تحـدث قبيـل قيـام السـاعة، فقـال: (لَا تَقُـومُ السَّـاعَةُ حـتى يُقْبَـضَ الْعِلْـمُ، وَتَكْـثُرَ الـزَّلَازِلُ، وَيَتَقَـارَبَ الزَّمَـانُ، وَتَظْهَـرَ الْفِـتَنُ، وَيَكْـثُرَ الْهَـرْجُ؛ وهـو الْقَتْـلُ الْقَتْـلُ، حـتى يَكْـثُرَ فِيكُـم الْمَـالُ فَيَفِيـضَ)[1]

وقـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (يَتَقَـارَبُ الزَّمَـانُ، وَيَنْقُـصُ الْعَمَـلُ، وَيُلْقَـى الشُّـحُّ، وَيَكْـثُرُ الْهَـرْجُ، قالـوا: ومـا الْهَـرْجُ؟ قـال: الْقَتْـلُ الْقَتْـلُ)[2]

وعـن أبي مُـوسَى، أن النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (إِنَّ بـين يَـدَي السَّـاعَةِ أيامـاً يُرْفَـعُ فيهـا الْعِلْـمُ، وَيَـنْزِلُ فيهـا الْجَهْـلُ، وَيَكْـثُرُ فيهـا الهَـرْجُ، وَالهَـرْجُ القَتْـلُ)[3]

فهـذه الروايـات وغيرهـا ممـا أخـرج الإمـام البخـاري في صحيحـه، تجمـع عـلى إطـلاق مسـمى الهـرج عـلى القتـل، جـاء في عمـدة القـاري أن الهـرج الفتنـة والاختـلاط، وأصـل الهـرج الكـثرة في الـشيء، وهـرج القـوم في الحديـث إذا أفاضـوا فيـه فأكـثروا، وقـال ابـن دريـد: الهـرج الفتنـة في آخـر الزمـان، وقـال القـاضي: الفـتن بعـض الهـرج، وأصـل الهـرج والتهـارج الاختـلاط والقتـال.[4]

وإن انتشـار القتـل وكثرتـه، يـدل عـلى قـرب قيـام السـاعة، ومـن الأمـور الـتي ذكـرت بهـذا الصـدد إضافـة إلى الهـرج، ظهـور الفـتن، ورفـع العلـم، ونـزول الجهـل، وكـثرة المـال بـين النـاس، وكـثرة الشـح، وكـثرة الـزلازل، فهـذه الأمـور ممـا يطلـق عليـه في علـم العقيـدة علامـات السـاعة الصغـرى، الـتي توطـئ لهـا، والمهـم هنـا التركـيز عـلى أن اتسـاع نطـاق القتـل، وانتشـاره في أوسـاط النـاس، حـتى يصـل بهـم الحـال أن يجهـل فيـه القاتـل فيـم قَتَـل، والمقتـول لا يعـرف لـم قُتِـل، وهـو مـا ينبغـي التحذيـر منـه، أو الانخـراط فيـه، لأنـه حـال سيء، وتبعاتـه وخيمـة.

اقتتال فئتين عظيمتين:

مـن الروايـات الصحيحـة الجامعـة الـتي توسـعت في سرد المزيـد مـن علامـات السـاعة

1. صحيح البخاري، كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.
3. صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ظهور الفتن.
4. عمدة القاري: 2 /92، بتصرف.

الصغرى، وفصلت في حيثياتها، ما رواه أبو هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ من ثَلَاثِينَ، كلهم يَزْعُمُ أَنَّهُ رسول اللَّهِ، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ، وهو القَتْلُ، وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمِ المَالُ، فَيَفِيضَ، حتى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ من يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ عليه، فَيَقُولَ الذي يَعْرِضُهُ عليه: لَا أَرَبَ لِي بِهِ، وَحَتَّى يَتَطَاوَلَ الناس في الْبُنْيَانِ، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فيقول: يا لَيْتَنِي مَكَانَهُ، وَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ من مَغْرِبِهَا، فإذا طَلَعَتْ وَرَآهَا الناس -يَعْنِي آمَنُوا أَجْمَعُونَ- فَذَلِكَ حين لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا، لم تَكُنْ آمَنَتْ من قَبْلُ، أو كَسَبَتْ في إِيمَانِهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وقد نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فلا يَتَبَايَعَانِهِ ولا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وقد انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ، فلا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وهو يُلِيطُ حَوْضَهُ، فلا يَسْقِي فيه، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ، وقد رَفَعَ أُكْلَتَهُ إلى فيه فلا يَطْعَمُهَا) [1]

فهذا الحديث الجامع المخبر عن غيب مستقبلي، يتضمن ذكراً لاقتتال دال على قرب قيام الساعة، حيث يقع هذا الاقتتال العظيم بين فئتين عظيمتين، دعوتهما واحدة، قيل: الفئتان الخوارج، وعلي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، وقوله: (دعوتهما واحدة) أي يدعيان الإسلام، ويتأول كل منهما أنه محق. [2]

وقد لا ينحصر الإخبار عن اقتتال الفئتين العظيمتين على ذلك الحادث التاريخي المأساوي، إذ قد يكون المقصود غيره، والله أعلم.

أعاذنا الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونجانا سبحانه من شر القتل والاقتتال المبغوضين، راجين المولى جل في علاه أن ييسر متابعة الوقوف عند مزيد من المنفرات عن الهرج، المستنتجة من هدي القرآن الكريم، وحديث خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار.
2. عمدة القاري: 24 /215.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحذر من اقتراف جرائم القتل

الحلقة الرابعة

عـن عَلْقَمَـةَ بـن وَائِـلٍ عـن أبيـه، قـال: (أُتِيَ رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بِرَجُـلٍ قَتَـلَ رَجُـلًا، فَأَقَـادَ وَلِيَّ الْمَقْتُـولِ منـه، فَانْطَلَـقَ بِـهِ، وفي عُنُقِـهِ نِسْـعَةٌ يَجُرُّهَـا، فلمـا أَدْبَـرَ، قـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: الْقَاتِـلُ وَالْمَقْتُـولُ فِي النَّـارِ، فَـأَتَى رَجُـلٌ الرَّجُـلَ، فقـال لـه مَقَالَـةَ رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فَخَـلَّى عنـه) (*)

بينـت الحلقـة السـابقة أن مـن علامـات السـاعة انتشـار الهـرج، وهـو القتـل، ومـن المعالم الغريبـة لحالـة الهـرج، أن لَا يَـدْرِي القاتـل فِيـمَ قَتَـلَ، ولا الْمَقْتُـولُ فِيـمَ قُتِـلَ، وفي روايـات صحيحـة ذكـر الهـرج مـع أمـور أخـرى تحـدث قبيـل قيـام السـاعة، ضمـن مـا يطلـق عليـه في علـم العقيـدة علامـات السـاعة الصغـرى، منهـا ظهـور الفـتن، ورفـع العلـم، ونـزول الجهـل، وكـثرة المـال بـين النـاس، والشـح، والـزلازل، والمهـم هنـا التركـيز عـلى أن اتسـاع نطـاق القتـل وانتشـاره في أوسـاط النـاس، يعـني لـزوم التحذيـر منـه، ولـزوم تجنـب الانخـراط فيـه، لأنـه حـال سيء، وتبعاتـه وخيمة. وبعـض الروايـات الصحيحـة الجامعـة بهـذا الصـدد توسـعت في سرد المزيـد مـن علامـات السـاعة الصغـرى، وفصلـت في حيثياتهـا، وأخـبرت عـن اقتتـال فئتـين عظيمتـين، بَيْنَهُمَـا مَقْتَلَـةٌ عَظِيمَـةٌ، دَعْوَتُهُمَـا وَاحِـدَةٌ، أي يدعيـان الإسـلام، ويتـأول كل منهمـا أنـه محـق.

---

* صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب صحة الإقرار بالقتل، وتمكين ولي القتيل من القصاص، واستحباب طلب العفو عنه.

فضل العفو والصفح عن القاتل:

حديث علقمة أعلاه، يظهر دور التوجيهات الدينية في تعديل سلوك المسلم حتى في أحلك الساعات، وأصعب الظروف، فلما ذكر ولي المقتول بحديث القاتل والمقتول في النار، عفا عنه، تحرزاً عن مصير المقتتلين، وفي القرآن الكريم ترغيب عام في العفو والصفح، حيث يقول جل شأنه: {...وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1]

فمعاني العفو والصفح، وانتظار المثوبة من الله على التحلي بهما، تُحدث في نفوس الناس أثراً إيجابياً يدفع إلى التراحم وإفشاء المحبة والسلام في أوساط المجتمع المسلم، عوضاً عن عقلية التعصب المقيت للعائلة أو القرابة، وممارسة الثأر المشؤوم، والذي في كثير من الأحوال يذهب ضحيته أبرياء، لا ناقة لهم ولا جمل، فيما سلف من جرائم، اقترفها أقارب لهم.

القصاص في القتلى:

موقف الإسلام العادل والحكيم من جرائم القتل، يفضي إلى تضييق نطاقه، وإشفاء غليل أولياء الدم، فالله شرع القصاص من القاتل بضوابط تضمن تحقيق العدالة بصرامة وحزم، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[2]

فهذه الآية الكريمة المتضمنة تشريع القصاص، لم تترك قيم العفو والمعروف والإحسان مغفلة، بل حثت عليها، فبعد إقرار حكم القصاص، أشارت إلى العفو، والاتباع بالمعروف، والأداء بإحسان، وقد جاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أن هذه الآية فيها تأويلان:

---

1. التغابن:14.
2. البقرة:178.

أحدهما: أن من قتل، عليه أداء الدية بإحسان، وعلى أولياء المقتول اتباعه بها على وفاء، فعلى هذا {من} كناية عن القاتل، وأخوه هو المقتول أو وليه، و{عفي} من العفو عن القصاص.

وعلى الثاني أن من أعطيته الدية فعليه اتباع المعروف، وعلى القاتل أداء بإحسان، فعلى هذا {من} كناية عن أولياء المقتول، وأخوه هو القاتل أو عاقلته، و{عفي} بمعنى يسر، كقوله: خذ العفو، أي ما تيسر.

{ذلك تخفيف} إشارة إلى جواز أخذ الدية؛ لأن بني إسرائيل لم تكن عندهم دية، وإنما هو القصاص، {فمن اعتدى} أي قتل قاتل وليه، بعد أن أخذ منه الدية، {عذاب أليم} القصاص منه، وقيل: عذاب الآخرة. [1]

القتل أنفى للقتل:

من وسائل حصر الاقتتال والقتل في أضيق نطاق، وأقل خسائر وبخاصة في مجال الأرواح، وسفك الدماء، القصاص من القاتل، وبهذا الصدد يقول جل شأنه، مبيناً حكمة عظيمة من حكم القصاص وثمراته: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [2]، وقد يتساءل بعض الناس عن كيفية تحقق الحياة في القصاص؟! والواقع يجيب عن هذا التساؤل، إذ إن قتل القاتل بموجب القصاص، يموت فيه اثنان على أبعد تقدير، المقتول الأول ظلماً وبغير حق، وقاتله بالقصاص، وفي حالات كثيرة ينتج عن المساعي الحميدة والمواعظ، دور فاعل في تقليص عدد المقتولين من خلال الوصول إلى عفو ولي الدم، بإرادته ورغبته وقناعته، وسواء قتل القاتل بالقصاص، أم عفي عنه، فإن القصاص يفضي للسيطرة على جرائم القتل، وحصرها في نطاق ضيق، دون أن يترك الناس للفلتان وثورة الدم والثأر

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 1/ 70.
2. البقرة: 179.

على طريقة أهل الجاهلية، وقد صدق من لخص هذه الحكمة العملية بثلاث كلمات: "القتل أنفى للقتل"، فقتل القاتل بالقصاص يقطع دابر الاسترسال في القتل، ويقلل من عدد القتلى بسببه، والإسلام يعيد الناس بتشريع القصاص إلى التعقل، والتبرؤ من أحوال الجاهلية، التي من أركان ثقافتها التعصب للقبيلة والقرابة، كما عبر عن ذلك قائلهم:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

وعلى العكس من هذه القيم، حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من التعصب المقيت، ناهياً عنه بأشد تعبير، فقال: (دعوها فإنها خبيثة) [1]، وقال: (دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ) [2]

ولن يخفى على متدبر ما تعنيه معاني الخبث والنتن في مجال التنفير والاستقذار، فالذي يرفضهما سيرفض العصبية، والذي يقع في حبالها وشركها، سيقع في وحل الخبث والنتن شاء أم أبى، ومن أشد سلبيات هذا الوحل الدمار الذي سيلحق بالبيئة المحيطة، والكراهية والبغضاء التي ستحل محل المحبة المرغب في سيادتها البيئات المجتمعية المتجانسة بالإيمان، عملاً بتوجيهاته، صلى الله عليه وسلم، حيث قال: (لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حتى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ على شَيْءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ) [3]

أعاذنا الله من العصبية الخبيثة والنتنة، التي بسببها تراق دماء بريئة، وتزهق أرواح مصونة، راجين أن ييسر الله متابعة الحديث عن التحذير من اقتراف جرائم القتل، وأن يهدينا سبحانه، إلى العمل الدائم بكتابه، وسنة نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وبارك عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية.

2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المنافقين، باب قوله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ}(المنافقون:6).

3. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبباً لحصولها.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحذر من اقتراف جرائم القتل

الحلقة الخامسة

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (وَمَنْ قُتِلَ لَه قَتِيلٌ، فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ؛ إِمَّا أَنْ يُفْدَى، وَإِمَّا أَنْ يُقِيدَ ...)[*]

ركزت الحلقة السابقة على فضل العفو والصفح عن القاتل، بادئة بحديث علقمة الذي بين أن ولي المقتول لما ذكر بحديث القاتل والمقتول في النار، عفا عنه، تحرزاً عن مصير المقتتلين، فمعاني العفو والصفح، وانتظار المثوبة من الله على التحلي بهما، تُحدث في نفوس الناس أثراً إيجابياً يدفع إلى التراحم، وإفشاء المحبة والسلام في أوساط المجتمع المسلم، إضافة إلى محاربة عقلية التعصب المقيت للعائلة أو القرابة، وممارسة الثأر المشؤوم، والذي في كثير من الأحوال يذهب ضحيته أبرياء لا ناقة لهم ولا جمل، فيما سلف من جرائم اقترفها أقارب لهم.

في القصاص حياة:

وقفت الحلقة السابقة كذلك عند موقف الإسلام العادل والحكيم الخاص بالقصاص من القاتل، والذي يفضي إلى تضييق نطاقه، وإشفاء غليل أولياء الدم، فالله شرع القصاص من القاتل بضوابط تضمن تحقيق العدالة بصرامة وحزم، وبهذا يصدق قول: القتل أنفى للقتل، والله أشار إلى حكمة من حكم القصاص، إذ بين سبحانه أن فيه حياة، فهو يسهم في السيطرة على جرائم القتل، وحصرها في نطاق ضيق، دون أن يترك الناس للفلتان وثورة الدم والثأر على طريقة أهل الجاهلية، فقتل القاتل بالقصاص، يقطع دابر الاسترسال في القتل، ويقلل من عدد القتلى بسببه، وإلى جانب ذلك يحث الإسلام على التبرؤ من أحوال الجاهلية، التي من أركان ثقافتها التعصب للقبيلة والقرابة، ويحذر في هذا السياق من التعصب المقيت،

* صحيح البخاري، كتاب في اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة.

ناهياً عنه بأشد تعبير، فوصف عليه الصلاة والسلام العصبية بأقذع وصف: خبيثة، ومُنْتِنَةٌ.

ولي المقتول بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ:

في حديث أبي هريرة، المثبت نصه أعلاه، تخيير لولي المقتول بين القصاص، أو العفو وأخذ الدية، حسب قوله صلى الله عليه وسلم : (إِمَّا أَنْ يُفْدَى، وَإِمَّا أَنْ يُقِيدَ...)

جاء في عمدة القاري أنهم اختلفوا فيه، وهو أن من قتل له قتيل عمداً، فوليه بالخيار بين أن يعفو، ويأخذ الدية، أو يقتص، رضي بذلك القاتل أو لم يرض، وهو مذهب سعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، ومجاهد، والشعبي، والأوزاعي، وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور، وقال ابن حزم: صح هذا عن ابن عباس، وروي عن عمر بن عبد العزيز، رضي الله تعالى عنهم، واحتجوا في ذلك بالحديث المذكور.

وقال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن ذكوان، وسفيان الثوري، وعبد الله بن شبرمة، والحسن بن حي، وأبو حنيفة، وأبو يوسف، ومحمد رحمهم الله: ليس لولي المقتول أن يأخذ الدية إلاَّ برضا القاتل، وليس له إلاَّ القود أو العفو، واحتج هؤلاء بما رواه البخاري، عن أَنَسٍ: (أَنَّ الرُّبَيِّعَ عَمَّتَهُ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا إِلَيْهَا الْعَفْوَ فَأَبَوْا، فَعَرَضُوا الْأَرْشَ فَأَبَوْا، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَأَبَوْا إلا الْقِصَاصَ، فَأَمَرَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، بِالْقِصَاصِ، فقال أَنَسُ بن النَّضْرِ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ؟! لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: يا أَنَسُ؛ كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ، فَرَضِيَ الْقَوْمُ فَعَفَوْا، فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: إِنَّ من عِبَادِ اللَّهِ من لو أَقْسَمَ على اللَّهِ لَأَبَرَّهُ) (*)

فثبت بهذا الحديث، أن الذي يجب بكتاب الله، وسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في العمد هو القصاص؛ لأنه لو كان للمجني عليه الخيار بين القصاص، وبين أخذ الدية، إذاً لخيره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولما حكم لها بالقصاص بعينه، فإذا كان كذلك وجب أن يحمل قوله: (فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ؛ إِمَّا أَنْ يُفْدَى، وَإِمَّا أَنْ يُقِيدَ) على أخذ الدية برضا القاتل، حتى تتفق معاني الآثار، ويؤيده ما رواه البخاري أيضاً عن ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قال: (كان فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقِصَاصُ، ولم تَكُنْ فِيهِم الدِّيَةُ، فقال الله تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: {كُتِبَ

*صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} (البقرة: 178}.

عَلَيْكُم الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَه من أَخِيهِ شَيْءٌ...} فَالْعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَةَ فِي الْعَمْدِ {فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إليه بِإِحْسَانٍ} يَتَّبِعُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُؤَدِّي بِإِحْسَانٍ، {ذلك تَخْفِيفٌ من رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ} مِمَّا كُتِبَ على من كان قَبْلَكُمْ، {فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} قَتَلَ بَعْدَ قَبُولِ الدِّيَةِ.[1] [2]

فالقاتل دون حق لن ينعم بالأمان في ظل شريعة الإسلام، ليعاود اقتراف الجرائم تحت مظلة أنه من عالمها، وأولياء المقتول ينتصر لهم الإسلام بالقصاص، وفي حال العدول عنه برضاهم، يشرع لهم أخذ الدية الباهظة من ناحية القدر المالي والقيمة النقدية، عوضاً عما وقع بحقهم.

راجين التوفيق لختم الحديث عن التحذير من اقتراف جرائم القتل، ونسأله سبحانه أن يهدينا للتحلي بالعفو والصفح، لما لهما من فضل حسب هدي القرآن الكريم، وسنة خاتم النبيين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1.صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى} (البقرة: 178}.

2. عمدة القاري، 12/ 276 - 277، بتصرف.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحذر من اقتراف جرائم القتل

الحلقة السادسة والأخيرة

عن عبد اللَّهِ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَنِّي رسول اللَّهِ، إلا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ؛ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، والمارق من الدين، التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ) [1]

بينت الحلقة السابقة أن ولي المقتول بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ، بموجب الحق الذي منحه إياه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (وَمَنْ قُتِلَ له قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ؛ إِمَّا أَنْ يُفْدَى، وَإِمَّا أَنْ يُقِيدَ...) فهو بالخيار بين أن يعفو ويأخذ الدية، أو يقتص، واختلف العلماء في اشتراط قبول القاتل باختيار الدية من قبل ولي المقتول، فبعضهم اشترط ذلك دون بعض، والمشترطون يقولون بأنه ليس لولي المقتول في القتل العمد إلاَّ القود أو العفو، واحتجوا بما ثبت في الحديث الصحيح أن الذي يجب بكتاب الله، وسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في العمد هو القصاص؛ لأنه لو كان للمجني عليه الخيار بين القصاص وبين أخذ الدية، إذاً لخيره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولما حكم لها بالقصاص بعينه، واحتج الذين لم يشترطوا قبول القاتل بالدية، بالحديث المذكور آنفاً، والذي خير ولي المقتول بين القصاص أو الدية.

النهي عن الإسراف في القتل:

تجلى التوازن في التشريع الإسلامي بين مصالح العباد، ومراعاة حقوقهم وواجباتهم، في نهي أولياء المقتول عن الإسراف والمبالغة الظالمة في القتل من ذوي القاتل، بالتزامن مع تشريع القصاص من القاتل، فقال عز وجل: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً} [2]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {أن النفس بالنفس} (المائدة: 45).
2. الإسراء:33.

فقد نهى الله عن أن يسرف ولي المقتول، بأن يقتل غير قاتل وليه، أو يقتل اثنين بواحد، وغير ذلك من وجوه التعدي.[1]

فقتل غير القاتل إثم وجريمة نكراء، تتقاطع مع قيم الباطل وأخلاق الجاهلية المنكرة، فعن الحسن وابن زيد، قالا: كانت العرب في الجاهلية إذا قتل منهم قتيل لم يرضوا أن يقتلوا قاتل صاحبهم حتّى يقتلوا أشرف من الذي قتله، فيعمد ولي المقتول إلى الشريف من قبيلة القاتل فيقتله بوليه، ويترك القاتل، فنهى الله عن ذلك. [2]

إثم سفك الدم الحرام:

يبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف أعلاه، أن دم المسلم محرم سفكه، إلا بسبب من ثلاثة، وهي: القصاص، واقتراف المحصن جريمة الزنى، وترك الدين والجماعة، مما يعني أن إباحة إزهاق روح المسلم تنحصر في مجالات ضيقة، والله جل في علاه، أمر بصون النفس عن القتل بغير حق، فقال عز وجل: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ...} [3]

وقتل النفس بغير حق من السبع المهلكات، لقوله صلى الله عليه وسلم: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ الله إلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ) [4]

ولخطورة قتل النفس بغير الحق، فقد برز التأكيد على لزوم تجنب اقترافه، في بيعة العقبة الأولى التي عقدت مع فريق الأوس والخزرج، فعن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ، رضي الله عنه، أَنَّهُ قال: (إِنِي من النُّقَبَاءِ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وقال: بَايَعْنَاهُ على أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شيئاً، ولا نَسْرِقَ، ولا نَزْنِيَ، ولا نَقْتُلَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله، ولا نَنْتَهِبَ، ولا نَعْصِيَ، بِالْجَنَّةِ إن فَعَلْنَا ذلك، فَإِنْ غَشِينَا من ذلك شيئاً كان قَضَاءُ ذلك إلى اللَّهِ) [5]

---

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 171.
2. تفسير الثعلبي: 6/ 97.
3. الإسراء:33.
4. صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى...} (النساء: 10).
5. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار إلى النبي، صلى الله عليه وسلم...

ويقول صلى الله عليه وسلم: (لن يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ من دِينِهِ، ما لم يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) [1]

ويقول: (إِنَّ من وَرَطَاتِ الْأُمُورِ التي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فيها، سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ)[2]، ويقول كذلك: (أَوَّلُ ما يُقْضَى بين الناس في الدِّمَاءِ) [3]

توبة القاتل:

من خصال المؤمن القرآنية، تجنبه قتل النفس المحرمة، ففي سياق بيان صفات المؤمنين النبيلة، ومكارمهم الحميدة، أنهم لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، حيث يقول عز وجل: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ...}[4]

والذي يقترف جريمة القتل بغير حق يبقى على خطر عظيم، إلا إذا يسر الله له التوبة النصوح قبل وفاته، فعن ابن عَبَّاسٍ: (أَنَّ نَاسًا من أَهْلِ الشِّرْكِ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا، صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: إِنَّ الذي تَقُولُ وَتَدْعُو لَحَسَنٌ، وَلَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً، فَنَزَلَ: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مع اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلا بِالْحَقِّ ولا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَامًا} وَنَزَلَ: {يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا من رَحْمَةِ اللَّهِ)[5]

وبهذه الوقفات عند ما تيسر ذكره ومناقشته من تبعات قتل النفس التي حرم الله إزهاق روحها بغير حق، نختم الحديث عن هذه القضية بالغة الأهمية والخطورة، حسب ما استنبط من هدي القرآن الكريم، وحديث خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً} (النساء: 93).
2. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً} (النساء: 93).
3. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: {ومن يقتل مؤمناً متعمداً} (النساء: 93).
4. الفرقان:68.
5. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
يحذر من الوأد الخفي

الحلقة الأولى

عـن جُدَامَـةَ بِنْـتِ وَهْـبٍ، أُخْـتِ عُكَّاشَـةَ، قالـت: حَـضَرْتُ رَسُـولَ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في أُنَـاسٍ، وهـو يقـول: (لقـد هَمَمْـتُ أَنْ أَنْهَـى عـن الغِيلَـةِ، فَنَظَـرْتُ في الـرُّومِ وَفَـارِسَ، فـإذا هُـمْ يُغِيلُـونَ أَوْلَادَهُـمْ، فـلا يَـضُرُّ أَوْلَادَهُـمْ ذلـك شـيئاً، ثُـمَّ سَـأَلُوهُ عـن العَـزْلِ، فقـال رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم: (ذلـك الـوَأْدُ الخَفِـيُّ) زَادَ عُبَيْـدُ اللَّـهِ في حَدِيثِـهِ عـن المُقْـرِئِ، وَهِـيَ: {وإذا المـوءودة سُـئِلَتْ}) [1]

أمـران يتعلقـان بـالأسرة البشريـة، وبثمـرة رئيسـة مـن ثمـار الـزواج، تلـزم الوجـود البـشري وبقـاءه، يتعـرض لهمـا حديـث جُدَامَـةَ بِنْـتِ وَهْـبٍ، أُخْـتِ عُكَّاشَـةَ، عـن رَسُـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، أحدهمـا يتعلـق بالغيلـة، والآخـر بالعـزل.

المحافظة على بقاء النسل البشري:

مـن المسـلمات الكونيـة والإيمانيـة، أن اللـه جـلَّ في عـلاه خلـق الإنسـان مـن ذكـر وأنـثى، وجعـل النـاس شـعوباً وقبائـل ليتعارفـوا، فقـال عـز وجـل: {يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُـم مِّـن ذَكَـرٍ وَأُنـثَى وَجَعَلْنَاكُـمْ شُـعُوباً وَقَبَائِـلَ لِتَعَارَفُـوا إِنَّ أَكْرَمَكُـمْ عِنـدَ اللَّـهِ أَتْقَاكُـمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيـمٌ خَبِـيرٌ} [2]

وخلـق اللـه مـن المـاء بـشراً، فجعـل منـه نسـباً وصهـراً، مصداقـاً لقولـه تعـالى: {وَهُـوَ الَّـذِي خَلَـقَ مِـنَ الْمَـاء بَـشَراً فَجَعَلَـهُ نَسَـباً وَصِهْـراً وَكَانَ رَبُّـكَ قَدِيـراً} [3]

وجعـل اللـه المحافظـة عـلى النسـل البـشري غايـة شرعيـة، ومقصـداً رئيسـاً مـن مقاصـد

---

1. صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب جواز الغيلة وهي وطء المرضع وكراهة العزل.
2. الحجرات: 13.
3. الفرقان: 54.

الديـن، وبكّـت اللـه الذيـن يهلكـون النسـل، فذكرهـم في سـياق التأنيـب والتقريـع، فقـال عـز وجـل: {وَإِذَا تَـوَلَّى سَـعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِـدَ فِيهَـا وَيُهْلِـكَ الْحَـرْثَ وَالنَّسْـلَ وَاللّـهُ لاَ يُحِـبُّ الفَسَـادَ} [1]

وفي المحصلـة، فـإن المحافظـة عـلى بقـاء النسـل البـشري، مطلـب شرعـي حيـوي، تتضافـر الأحـكام الشرعيـة والقيـم الدينيـة في الحـث عليهـا، وبيـان لـزوم احترامهـا ومراعاتهـا في المواقـف والأفعـال الفرديـة والجماعيـة.

النهي عن قتل الأولاد:

عـلى درب المحافظـة عـلى البقـاء البـشري، ومبـادئ احـترام حيـاة الإنسـان، ومنـع إزهـاق روحـه بغـير حـق، ضمـن اللـه تحريـم قتـل الأبنـاء ضمـن كبائـر الذنـوب والخطايـا الـتي يلـزم تجنبهـا، فقـال عـز وجـل: {قُـلْ تَعَالَـوْا أَتْـلُ مَـا حَـرَّمَ رَبُّكُـمْ عَلَيْكُـمْ أَلاَّ تُشْرِكُـواْ بِـهِ شَـيْئاً وَبِالْوَالِدَيْـنِ إِحْسَـاناً وَلاَ تَقْتُلُـواْ أَوْلاَدَكُـم مِـنْ إِمْـلاَقٍ نحْـنُ نَرْزُقُكُـمْ وَإِيَّاهُـمْ وَلاَ تَقْرَبُـواْ الْفَوَاحِـشَ مَـا ظَهَـرَ مِنْهَـا وَمَـا بَطَـنَ وَلاَ تَقْتُلُـواْ النَّفْـسَ الَّـتِي حَـرَّمَ اللّـهُ إِلاَّ بِالْحَـقِّ ذَلِكُـمْ وَصَّاكُـمْ بِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَعْقِلُـونَ} [2]

هـذه الآيـة الكريمـة تذكـر سـبباً كان ومـا زال مـن أسـباب لجـوء بعـض النـاس إلى قتـل الأبنـاء، والتخلـص مـن أعبائهـم، ذلكـم هـو الفقـر الـذي عـبرت عنـه الآيـة الكريمـة بلفـظ {إمـلاق} فضيـق ذات اليـد، وعـسر الحيـاة الاقتصاديـة لبعـض الأسر، دفعـت بعـض أهـل الجاهليـة القديمة وإخوانهـم مـن أهـل الجاهليـة المعـاصرة، إلى اقـتراف جريمـة التخلـص مـن الأبنـاء، بحثـاً عن سـعة رزق، وتخفيفـاً للنفقـات، ولا يخـرج عـن دائـرة هـذه الجريمـة المنكـرة إصرار بعـض أربـاب الأسر عـلى نسـائهم للتخلـص مـن حمـل وهبهـم اللـه إيـاه، وبعضهـم يضـع امرأتـه الحامـل بـين خيارين صعبـين، إمـا الإجهـاض أو الطـلاق، وهـذا بـلا ريـب موقـف يتناقـض مـع النهـي القـرآني عـن قتـل الولـد بسـبب الفقـر، حـتى إن بعضهـم يقـترف جريمـة القتـل ليـس بسـبب فقـر واقـع، بـل بسـبب الخـوف مـن فقـر متوقـع، واللـه حـذر مـن ذلـك، فقـال سـبحانه: {وَلاَ تَقْتُلُـواْ أَوْلاَدَكُـمْ خَشْـيَةَ إِمْـلاقٍ

1. البقرة: 205.
2. الأنعام: 151.

نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً}[1]، فجريمة قتل الأولاد قبل الولادة أو بعدها، تقع في مصافي كبائر الذنوب والخطايا، والعياذ بالله.

الغيلة:

يروي الإمام النووي عن أهل اللغة، أن الغِيلة هنا بكسر الغين، ويقال لها الغيل، بفتح الغين مع حذف الهاء، وأن جماعة من أهل اللغة قالوا: الغيلة بالفتح المرة الواحدة، وأما بالكسر فهي الاسم من الغيل، وقيل: إن أريد بها وطء المرضع جاز الغَيلة والغِيلة؛ بالكسر والفتح: واختلف العلماء في المراد بالغيلة في هذا الحديث، وهي الغيل، فقال مالك في الموطأ والأصمعي وغيره من أهل اللغة: أن يجامع امرأته وهي مرضع، يقال منه: أغال الرجل وأغيل، إذا فعل ذلك، وقال ابن السكيت: هو أن ترضع المرأة وهي حامل، يقال منه غالت وأغيلت، قال العلماء: سبب همه صلى الله عليه وسلم، بالنهي عنها أنه يخاف منه ضرر الولد الرضيع، قالوا: والأطباء يقولون إن ذلك اللبن داء، والعرب تكرهه وتتقيه، وفي الحديث جواز الغيلة، فإنه صلى الله عليه وسلم، لم ينه عنها، وبين سبب ترك النهي، وفيه جواز الاجتهاد لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبه قال جمهور أهل الأصول، وقيل: لا يجوز لتمكنه من الوحي، والصواب الأول[2]، ويذكر العيني عن أئمة الفتوى اتفاقهم على جواز العزل عن الحرة، إذا أذنت فيه لزوجها.[3]

فإرضاع الحامل أو معاشرتها من زوجها، لم يتم النهي عنهما بالجزم والقطع، فيبقيان مباحين، وتطرق الرسول، صلى الله عليه وسلم، لهذه المسألة يدل على عناية الإسلام بالأسرة والأطفال، وسلامة الإنجاب، عسى أن يوفق الله جل شأنه إلى متابعة التطرق لهذه المسألة والأخرى المتعلقة بالعزل والوأد الخفي، في ضوء حديث الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الإسراء: 31.
2. صحيح مسلم بشرح النووي 10 /16 - 17.
3. عمدة القاري: 13/ 103.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
يحذر من الوأد الخفي

الحلقة الثانية والأخيرة

عـن أبي سَـعِيدٍ الخُـدْرِيِّ، قـال: (أَصَبْنَـا سَـبْيًا فَكُنَّا نَعْزِلُ، فَسَـأَلْنَا رَسُـولَ اللَّهِ، صـلى الله عليه وسـلم، فقـال: أو إنكـم لَتَفْعَلُـونَ؟ قَالَهَـا ثَلَاثًـا، مـا من نَسَـمَةٍ كَائِنَـةٍ إلى يَـوْمِ القِيَامَـةِ إلا هِـيَ كَائِنَةٌ)(*)

تعرضـت الحلقـة السـابقة إلى عنايـة الإسـلام بالمحافظـة عـلى بقـاء النسـل البـشري كغايـة شرعيـة، ومقصـد رئيـس مـن مقاصـد الديـن، وبكَّـت اللـه الذيـن يهلكـون النسـل، وتضافـرت الأحكام الشرعيـة، والقيـم الدينيـة في الحـث عـلى لـزوم احـترام هـذه الغايـة النبيلـة، وضرورة مراعاتهـا في المواقـف والأفعـال الفرديـة والجماعيـة.

وعـلى درب المحافظـة عـلى البقـاء البـشري، ومبـادئ احـترام حيـاة الإنسـان، حـرم الإسـلام إزهـاق الأرواح بغـير حـق، ومـن ضمـن ذلـك أنـه جعـل قتـل الأبنـاء ضمـن كبائـر الذنـوب والخطايـا الـتي يلـزم تجنبهـا، فضيـق ذات اليـد، وعـسر الحيـاة الاقتصاديـة لبعـض الأسر، دفعـت بعـض أهـل الجاهليـة القديمـة وإخوانهـم مـن أهـل الجاهليـة المعـاصرة، إلى اقـتراف جريمـة التخلـص مـن الأبنـاء، بحثـاً عـن سـعة رزق، وتخفيـف النفقـات، ولا يخـرج عـن دائـرة هـذه الجريمـة المنكـرة إصرار بعـض أربـاب الأسر عـلى نسـائهم للتخلـص مـن حمـل وهبهـم اللـه إيـاه، وبعضهـم يضـع امرأتـه الحامـل بـين خيارين صعبـين، إمـا الإجهـاض أو الطـلاق، وهـذا بـلا ريـب موقـف يتناقـض مـع النهـي القـرآني عـن قتـل الولـد بسـبب الفقـر، حـتى إن بعضهـم يقـترف جريمـة القتـل ليـس بسـبب فقـر واقـع، بـل بسـبب خـوف مـن فقـر متوقـع، فجريمـة قتـل الأولاد قبـل الـولادة أو بعدهـا تقـع في مصـاف كبائـر الذنـوب والخطايـا، والعيـاذ باللـه.

* صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب العزل.

وبالنسبة إلى الغيلة، فقد اختلف العلماء في المراد بها، فقال بعضهم: إن المراد بها أن يجامع امرأته وهي مرضع، وقيل: إن ترضع المرأة وهي حامل، وسبب الهم بالنهي عنها هو الخوف من ضرر الولد الرضيع، فمسألة إرضاع الحامل أو معاشرتها من زوجها، لم يتم النهي عنهما بالجزم والقطع، فيبقيان مباحين، وتطرق الرسول، صلى الله عليه وسلم، لهذه المسألة يدل على عناية الإسلام بالأسرة والأطفال وسلامة الإنجاب، وتبعاً للحديث عن هذه القضايا، سيتم التطرق إلى مسألة العزل الموصوفة في الحديث الشريف بالوأد الخفي:

الوأد الخفي:

الوأد الذي كان يمارسه الجاهليون، تتلخص صورته في دفن المولودة الأنثى من قبل ذويها، وهي على قيد الحياة، ليس لشيء سوى أنها ولدت أنثى، ووصف القرآن حالهم، وهم يستقبلون أخبار ولادة الأنثى، فقال تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ}[1]، واستنكر الإسلام جريمة الوأد، وتوعد مقترفيها، فقال سبحانه: {وَإِذَا الْمَوْءودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}[2]

وقد وصف الرسول، صلى الله عليه وسلم، العزل بالوأد الخفي، جاء ذلك بإجابته عن سؤالهم عن العزل، فقال: (ذاك الوأد الخفي) وفي صحيح مسلم بشرح النووي، قيل: إن الموؤدة سميت بذلك؛ لأنها تثقل بالتراب، وقد سبق في باب العزل وجه تسمية هذا وأداً، وهو مشابهته الوأد في تفويت الحياة، وقوله في هذا الحديث: {وإذا الموؤدة سئلت} معناه أن العزل يشبه الوأد المذكور في هذه الآية[3]، والمراد بالعزل إنزال مني الرجل خارج رحم المرأة بقصد منع الحمل.

---

1. النحل:58.
2. التكوير:8 - 9.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 10/ 17 - 18.

حكم العزل:

جاء في عمدة القاري، أن قوله: (أو إنكم تفعلون؟) اختلفوا في معناه، فقالت طائفة: ظاهره الإنكار والزجر، فنهى عن العزل، وحكى ذلك أيضاً عن الحسن، وكأنهم فهموا من كلمة (لا) في رواية أخرى، لا ما عليكم أن لا تفعلوا، وهي رواية ابن القاسم وغيره عن مالك، إنها للنهي عما سئل عنه، وأن كلمة (لا) في: (أن لا تفعلوا) لتأكيد النهي، كأنه قال: لا تعزلوا، وعليكم أن لا تفعلوا، وقالت طائفة: إن هذا إلى النهي أقرب، وقالت طائفة أخرى: كأنها جعلت جوابا لسؤال، قوله: (عليكم أن لا تفعلوا) أي ليس عليكم جناح في أن لا تفعلوا، وقول هؤلاء أولى بالمصير إليه، بدليل قوله: (ما من نسمة...إلى آخره)، وبقوله: (افعلوا أو لا تفعلوا إنما هو القدر) وبقوله: (إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء) وهذه الألفاظ كلها مصرحة بأن العزل لا يرد القدر، ولا يضر، فكأنه قال لا بأس به، وبهذا تمسك من رأى إباحته مطلقاً عن الزوجة والأمة، وبه قال كثير من السلف من الصحابة والتابعين، فما من نفس قدر كونها إلاَّ وهي تكون، سواء عزلتم أو لا، أي ما قدر وجوده لا يمنعه العزل.[1]

وفي صحيح البخاري، قال عَمْرٌو: أخبرني عَطَاءٌ أنه سمع جَابِرًا، رضي الله عنه، قال: (كنا نَعْزِلُ وَالقُرْآنُ يَنْزِلُ، وَعَنْ عَمْرٍو عن عَطَاءٍ عن جَابِرٍ، قال: كنا نَعْزِلُ على عَهْدِ النبي، صلى الله عليه وسلم، وَالْقُرْآنُ يَنْزِلُ)[2]

مشيئة الله غالبة:

يلفت الحديث الشريف أعلاه إلى مسألة عقائدية، تتعلق بالقدر، فاللجوء إلى العزل بقصد منع مجيء الولد، لن يمنع مجيئه إذ قدر الله المجيء، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم، في حديثه أعلاه: (ما من نَسَمَةٍ كَائِنَةٍ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إلا هِيَ كَائِنَةٌ).

---

1. عمدة القاري: 20 /196.
2. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب العزل.

يبين العيني أن قوله: (نسمة) بفتح السين، وهي الإنسان؛ أي ما من نفس كائنة في علم الله إلاَّ وهي كائنة في الخارج، لا بد من مجيئها من العدم إلى الوجود، أي ما قدر الله أن يكون البتة.[1]

وفي موضع آخر من عمدة القاري، أن النسمة كل دابة فيها روح، والنسيم الريح، وقال القزاز: كل إنسان نسمة، ونفسه نسمة.[2]

فمسألة الوأد الخفي ذات صلة بالعقيدة والإيمان من جانب، وبالفقه والأحكام الشرعية من جانب آخر، وبها نختم الحديث عن التحذير من الوأد الخفي، في ضوء ما جاء بشأنه في أحاديث الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. عمدة القاري: 13 /103.

2. عمدة القاري: 17 /202.

الفصل الخامس /سياسة شرعية

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يرسي مبادئ احترام حقوق الإنسان حتى في الحروب	116
.2	يحذر الأمراء والمسؤولين من الانحراف عن الجادة - الحلقة الأولى	119
.3	يحذر الأمراء والمسؤولين من الانحراف عن الجادة - الحلقة الثانية	122
.4	يحذر الأمراء والمسؤولين من الانحراف عن الجادة - الحلقة الثالثة والأخيرة	125

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم يرسي مبادئ احترام حقوق الإنسان حتى في الحروب

عَـنْ سُـلَيْمَانَ بـنِ بُرَيْـدَةَ، عَـنْ أَبِيـهِ، قَـالَ: (كَانَ رَسُـولُ اللـهِ، صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، إِذَا أَمَّـرَ أَمِـيرًا عَـلَى جَيْـشٍ، أَوْ سَرِيَّـةٍ، أَوْصَـاهُ فِي خَاصَّتِـهِ بِتَقْـوَى اللـهِ، وَمَـنْ مَعَـهُ مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ خَـيْرًا، ثُـمَّ قَـالَ: (اغْـزُوا بِاسْـمِ اللـهِ فِي سَـبِيلِ اللـهِ، قَاتِلُـوا مَـنْ كَفَـرَ بِاللـهِ، اغْـزُوا وَلَا تَغُلُّـوا، وَلَا تَغْـدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُـوا، وَلَا تَقْتُلُـوا وَلِيـدًا...) (*)

يـوصي الرسـول الأسـوة، صـلى اللـه عليـه وسـلم، في هـذا المقطـع مـن حديثـه أعـلاه بأخـلاق سـامية، تضمنـت النهـي عـن مثالـب يتهـاون كثـير مـن النـاس بهـا، وبخاصـة مـن شريحـة المتقاتلـين في خضـم المعـارك والحـروب الـتي يخوضونهـا، فيقترفـون جرائـم بحـق الإنسـانية ينـدى لهـا جبـين كل إنسـان كريـم.

التذكير بجرائم الظالمين بحق أبناء شعبنا:

مـن الجرائـم المقترفـة بـدم بـارد ضـد الوجـود الإنسـاني مجـازر صـبرا وشـاتيلا الـتي حدثت في 1982/9/17م، حيـث قتـل فلسـطينيون مدنيـون أبريـاء، كانـوا يقطنـون مخيمـي صـبرا وشـاتيلا في لبنـان، واهـتزت مـن هـول تلـك الجريمـة النكـراء فرائـص كل مـن كان لديـه صلـة بنبـض الإنسـانية، ولـم تكـن تلـك الجريمـة وحيـدة ولا فريـدة مـن نوعهـا، فسُـبقت بجرائـم مشـابهة في الفظاعـة والقبـح، وإن اختلفـت المواقـع والمواعيـد الزمانيـة، ومـن تلـك الجرائـم جريمـة ديـر ياسـين، ومـا تبعهـا مـن جرائـم فظيعـة ممـا ارتكـب في المسـجد الأقـصى المبـارك في القـدس والمسـجد الإبراهيمـي في الخليـل، وغيرهمـا مـن المناطـق والمواقـع الفلسـطينية داخـل الوطـن وخارجـه. ويجمع تلك الجرائم قاسـم مشـترك، يتلخص في أن مرتكبيها ظالمون متغطرسـون، ينكرون حق غيرهم في الحيـاة والوجـود، ويسـعون للاسـتحواذ والإحلال الظالم على حسـاب أصحاب الحقـوق المشروعة.

وقـد التظـى بنـار جرائـم المتغطرسـين الشـجر والحجـر، وصاحـب الشـيبة، والأطفـال الرضـع، والنسـاء، والرجـال الآمنـين في بيوتهـم ومراكبهـم وأماكـن تعبدهـم.

* صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها.

شاهد على مذبحة من مذابح 1948م:

تـوفي قبـل بضعـة أيـام عالـم مـن علمـاء الشريعـة الإسـلامية، وأحـد أكاديمـي العلـم الشرعـي الجامعـي في فلسـطين، وهـو المرحـوم الدكتور أمـير رصرص، وبمناسـبة وفاته نـشرت بعض وسـائل الإعـلام مقاطـع مـن سـيرته الذاتيـة، ومؤلفاتـه، تضمنـت شـهادته عـلى مذبحـة الدوايمـة، الـتي أثبتهـا في كتابـه "الوجـيز في تاريـخ الإسـلام والمسـلمين". حيـث قـال عـن المذبحة:"عـام 1948 أُجبرنـا قـصراً عـلى مغـادرة بلدتنـا الفالوجـة جـراء قصـف الطائـرات لهـا، وسـقوط شـهداء وجرحـى، وخوفـاً مـن المذابـح الـتي كانـت تقـوم بهـا عصابـات الصهاينـة، لكـن أصعـب مشـهد في حيـاتي لـم أنسـه، ولا يمكنـني أن أنسـاه، هـو مذبحـة الدوايمـة، الـتي جـرت يـوم رحلينـا وهجرتنـا مـن الفالوجـة".

وأضـاف في كتابـه: "مكثنـا في سـيرنا عـلى الأقـدام متوجهـين نحـو الخليـل، وجلسـنا لأخـذ اسـتراحة في مسـجد بلـدة بـين الفالوجـة والخليـل تسـمى الدوايمـة، وذلـك يـوم الجمعـة، أذَّن المـؤذن للصـلاة، واصطـف الرجـال، وخـلال الصـلاة، اقتحمـت العصابـات الصهيونيـة المسـجد، وأطلقـت الرصـاص الحـي مـن رشاشـاتها، والقنابـل المتفجـرة عـلى المصلـين، فاستشـهد مـن استشـهد، ونجـا مـن نجـا".

ويقـول المرحـوم رصرص: "كنـت شـاهداً عـلى قتـل المئـات مـن أبنـاء شـعبنا في الدوايمـة، رأيـت بـأم عيـني الجثـث تكسـوها الدمـاء، حاولـت النسـاء الاختبـاء بأطفالهـن في إحـدى المغـارات، لكـن الجنـود لاحقوهـن، فقتلـوا العـشرات منهـن، كنـا ننتظـر المـوت في أي لحظـة، ونجحـت أنـا وبعـض الشـباب مـن أقـاربي في الاختبـاء، واسـتغلال حلـول الظـلام، حدثـت المذبحـة الأولى ظهـراً، والثانيـة قبـل غيـاب الشـمس بقليـل، وكنـا في طريقنـا نحـو مدينـة الخليـل، وشـاهدت بعيـني مقتـل المئـات مـن الرجـال والنسـاء والأطفـال، لقـد مـلأت الدمـاء المـكان".

فهـذا التوثيـق الموجـز لشـاهد عيـان عـلى مجـزرة مـن مجـازر الصهاينـة المقترفـة ضـد شـعبنا، تعززهـا شـهادات عاينهـا كثـير مـن أبنـاء شـعبنا الصابـر المرابـط، ممـن عايشـوا المجـازر المعـاصرة ضدهـم في الوطـن والشـتات، والعالـم بـأسره عايـن هـذه الجرائـم بحكـم يـسر التواصـل، وتوافـر وسـائل النقـل السريـع للمعلومـات الـتي تبـث الأخبـار بسـهولة ويـسر عـلى مـدار السـاعة.

أخلاق الحرب في الإسلام:

بمناسبة ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا، يحسن التذكير بقيم الإسلام النبيلة المستنبطة من المقطع المثبت في الحديث الشريف المثبت أعلاه، والذي يوصي فيه الرسول الأسوة، صلى الله عليه وسلم، بأخلاق سامية، عسى أن تكون في ذلك عبرة للبشرية التي تتلاطمها أمواج الغطرسة، والتخبط في الظلمات من كل حدب وصوب، ومن تلك النواهي التي شملها الحديث الشريف: (وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا) والغلول الخيانة في المغنم مطلقاً، والغدر ضد الوفاء، والمُثلة من مثل بالقتيل؛ إذا قطع أنفه، أو أذنه، أو مذاكيره، أو شيئاً من أطرافه، والمراد بالوليد المنهي عن قتله في الحرب، غير البالغ سن التكليف. [1]

يقول الإمام النووي: وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها، وهي تحريم الغدر، وتحريم الغلول، وتحريم قتل الصبيان إذا لم يقاتلوا، وكراهة المثلة، واستحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى، والرفق بأتباعهم، وتعريفهم ما يحتاجون إليه في غزوهم، وما يجب عليهم، وما يحل لهم، وما يحرم عليهم، وما يكره، وما يستحب. [2]

ومن الأدلة الشرعية المساندة لنواهي الأمراء المبينة في الحديث الشريف، قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [3]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُنْصَبُ بِغَدْرَتِهِ) [4]

فهذا غيض من فيض المبادئ الأخلاقية، في مجال احترام حقوق الإنسان حتى في الحروب، أرسى جذورها الإسلام، عملاً بهدي القرآن الكريم، وما روي عن خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. سبل السلام: 4 /46.
2. صحيح مسلم بشرح النووي: 12 /37.
3. آل عمران:161.
4. صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم يحذر الأمراء والمسؤولين من الانحراف عن الجادة

الحلقة الأولى

عن عبد الرحمن بن شِمَاسَةَ، قال: (أَتَيْتُ عَائِشَةَ أَسْأَلُهَا عن شَيْءٍ، فقالت: مِمَّنْ أنت؟ فقلت: رَجُلٌ من أَهْلِ مِصْرَ، فقالت: كَيْفَ كان صَاحِبُكُمْ لَكُمْ في غَزَاتِكُمْ هذه؟ فقال: ما نَقَمْنَا منه شيئاً، إن كان لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا الْبَعِيرُ، فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ، وَيَحْتَاجُ إلى النَّفَقَةِ، فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ، فقالت: أَمَا إنه لَا يَمْنَعُنِي الذي فَعَلَ في مُحَمَّدِ بن أبي بَكْرٍ أَخِي، أَنْ أُخْبِرَكَ ما سمعت من رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول في بَيْتِي هذا: اللهم من وَلِيَ من أَمْرِ أُمَّتِي شيئاً، فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه، وَمَنْ وَلِيَ من أَمْرِ أُمَّتِي شيئاً، فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ) [1]

يتعلق جانب مهم من الحديث الشريف أعلاه بسلوك الأمراء والمسؤولين تجاه رعاياهم الذين استرعوا أمورهم، فمنهم صاحب السلوك السوي المنصف، المؤدي للواجب المنوط به، ومنهم المهمل أو المقصر، أو الغاش لرعيته، وشتان بين الصنفين، وبخاصة في مجال رضا الله وتوفيقه أو سخطه، فعن الْحَسَنِ، قال: (عَادَ عُبَيْدُ اللَّهِ بن زِيَادٍ مَعْقِلَ بن يَسَارٍ الْمُزَنِيَّ، في مَرَضِهِ الذي مَاتَ فيه، قال مَعْقِلٌ: إني مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ من رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، لو عَلِمْتُ أَنَّ لي حَيَاةً ما حَدَّثْتُكَ، إني سمعت رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: ما من عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً، يَمُوتُ يوم يَمُوتُ، وهو غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلا حَرَّمَ الله عليه الْجَنَّةَ) [2]

فالمسؤول الغاش لرعيته يحرم الله عليه الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً، كما ثبت في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم، حيث قال: (من قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لم يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ من مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) [3]

---

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل...
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.
3. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم.

الدعاء للوالي أو عليه:

تروي أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، في الحديث الشريف أعلاه، عن رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، دعاءه: (اللهم من وَلِيَ من أَمْرِ أُمَّتِي شيئاً، فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه، وَمَنْ وَلِيَ من أَمْرِ أُمَّتِي شيئاً، فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ) يقول الإمام النووي: هذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس، وأعظم الحث على الرفق بهم.[1]

جاء في فيض القدير، أن المراد بقوله صلى الله عليه وسلم، هنا: (أُمَّتِي) أمة الإجابة، ولا مانع من إرادة الأعم هنا، (شيئاً) من الولاية؛ كخلافة، وسلطنة وقضاء وإمارة، ونظارة ووصاية، وغير ذلك، نكرَّه مبالغة في الشيوع، وإرادة للتعميم (فَشَقَّ عليهم) أي حملهم على ما يشق عليهم، أو أوصل المشقة إليهم بقول أو فعل، فهو من المشقة، التي هي الإضرار، لا من الشِقاق الذي هو الخلاف، قال في العين: شق الأمر عليه مشقة أضر به، (فَاشْقُقْ عليه) أي أوقعه في المشقة، جزاء وفاقاً، (وَمَنْ وَلِيَ من أَمْرِ أُمَّتِي شيئاً، فَرَفَقَ بِهِمْ)؛ أي عاملهم باللين والإحسان والشفقة، (فَارْفُقْ بِهِ) أي افعل به ما فيه الرفق له، مجازاة له بمثل فعله، وهذا دعاء مجاب، وقضيته لا يشك في حقيقتها عاقل، ولا يرتاب، فقلما ترى ذا ولاية عسف وجور عامل عيال الله بالعتو والاستكبار، إلا وكان آخر أمره الوبال، وانعكاس الأحوال، فإن لم يعاقب بذلك في الدنيا، قصرت مدته، وعجل بروحه إلى بئس المستقر سقر، ولهذا قالوا: الظلم لا يدوم، وإن دام دمر، والعدل لا يدوم، وإن دام عمر، وهذا أبلغ زجر عن المشقة على الناس، وأعظم حث على الرفق بهم.[2]

المسؤولية أمانة عظيمة:

المسؤولية أمانة عظيمة، فعن أبي ذَرٍّ، قال: (قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، ألا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قال: فَضَرَبَ بيده على مَنْكِبِي، ثُمَّ قال: يا أَبَا ذَرٍّ، إنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يوم الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلا من أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الذي عليه فيها)[3]

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 12 /213.
2. فيض القدير: 2/ 106 - 107.
3. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

فالمسؤولية أمانة، والأمانة شأنها عظيم، يقول سبحانه عنها: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}[1]

فكل مسؤول مستأمن على أداء الواجب المكلف به، بغض النظر عن نوع الواجب ومستواه، فعن عبد اللَّهِ بن عُمَر، رضي الله عنهما، أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)[2]، فالمسؤولية غير منحصرة بسدة الحكم، بل تشمل بالإضافة إلى ذلك أنواع المسؤوليات كلها على اختلاف مستوياتها وحجمها ومسمياتها، يذكر النووي عن العلماء قولهم: الراعي هو الحافظ المؤتمن، الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء، فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه.[3]

فهذا جانب من التحذيرات والتوجيهات الموجهة للأمراء والمسؤولين؛ لئلا يقصروا بواجباتهم، ولكي يحجموا عن تولي المسؤولية دون كفاءة، عسى أن ييسر الله متابعة الوقوف عند مزيد منها، في ضوء الهدي القرآني، وسنة خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الأحزاب:72.
2. صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 12/ 213.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم يحذر الأمراء والمسؤولين من الانحراف عن الجادة -

الحلقة الثانية

عن أبي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (يا أَبَا ذَرٍّ، إني أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لك ما أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ على اثْنَيْنِ، ولا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ) [1]

أشارت الحلقة السابقة إلى سلوك الأمراء والمسؤولين تجاه رعاياهم، التي استرعوا أمورها، السوي منه والمنحرف، موضحة أن المسؤول الغاش لرعيته يحّرم الله عليه الجنة، ووقفت عند دعائه، صلى الله عليه وسلم، على من يلِيَ من أَمْرِ أمته شيئاً فَيشَقَّ عليهم، بأن يشْقُق الله عليه، وَمَنْ يَلِيَ من أَمْرِها شيئا فيَرْفَقَ بِهِمْ، بأن يرْفُق الله بِهِ، مع التأكيد على أن كل مسؤول مستأمن على أداء الواجب المكلف به، بغض النظر عن نوع مسؤوليته ومستواها، وأن المسؤولية غير منحصرة بسدة الحكم، بل تشمل بالإضافة إلى ذلك أنواع المسؤوليات كلها على اختلاف مستوياتها وحجمها ومسمياتها، بدليل بيانه صلى الله عليه وسلم، بأن كل فرد راع، ومسؤول عن رعيته.

كفاءة المسؤول:

في الحديث أعلاه تأكيد على أن المسؤولية أمانة عظيمة، وبدليل قوله، صلى الله عليه وسلم، لأبي ذر، رضي الله عنه: (إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يوم الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلا من أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الذي عليه فيها) [2]

يقول النووي: هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف الولاية، وأما الخزي والندامة، فهما في حق من لم يكن أهلاً لها،

1. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

أو كان أهلاً ولم يعدل فيها، فيخزيه الله تعالى يوم القيامة، ويفضحه، ويندم على ما فرط، وأما من كان أهلاً للولاية، وعدل فيها، فله فضل عظيم.[1]

ومن الإشارات القرآنية لاشتراط الكفاءة في المسؤول، تلك الواردة على لسان ابنة الشيخ الكبير التي سقى لها ولأختها موسى ماشيتهما لما وردتا ماء مدين، في حادثة أرّخها القرآن الكريم، بقوله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ* فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ* فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[2]

ولما رجعت الفتاتان لأبيهما، أوصت إحداهما أباهما بتوظيف موسى عنده، لما رأت منه القوة والأمانة وسلامة السلوك، وقد أثبت الله وصيتها تلك في سياق سرد تلك القصة القرآنية، فقال تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}[3]

والكفاءة تشمل القدرة والمهارة، إضافة إلى العدالة والأمانة وسوية السلوك، ويفهم هذا من وصفها لموسى بالقوي الأمين، وحين يتغافل الناس عن شرط الكفاءة في التوظيف وإسناد المسؤوليات، تقع الطامة، التي يشير وقوعها إلى قرب قيام الساعة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: (بَيْنَمَا النبي، صلى الله عليه وسلم، في مَجْلِسٍ يحدث القَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ، فقال: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يحدث، فقال بَعْضُ الْقَوْمِ: سمع ما قال فَكَرِهَ ما قال، وقال بَعْضُهُمْ: بَلْ لم يَسْمَعْ حتى إذا قَضَى حَدِيثَهُ، قال: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عن السَّاعَةِ؟ قال: هَا أنا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: فإذا ضُيِّعَت الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قال: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قال: إذا وُسِّدَ الْأَمْرُ إلى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)[4]

---

1. صحيح مسلم بشرح النووي: 12 /210.
2. القصص:23 - 25.
3. القصص:26.
4. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشتغل...

التحذير من الحرص على تولي المسؤولية:

الأصل في المسؤولية والمناصب التابعة لها أن يتبوأها من يكون أهلاً لها، ثم إذا أسندت إليه فعليه أن يبذل الوسع والطاقة في أداء واجب الملقى على عاتقه بشأنها على أكمل وجه، ومن يكون هذا حاله يفترض أن ينظر إلى تولي المسؤولية بأنه تكليف لا تشريف، للتبعات المصاحبة لها، وقد حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الحرص على تولي الإمارة، مشبهاً إياها بالمرضعة حال انتفاع المسؤول من مكاسبها، وهو على رأس المسؤولية، وهي تشبه الفاطمة التي يجف لبنها، وتكف عن الإرضاع، لما يترك المسؤول منصبه، سواء لإحالته على التقاعد، أو لأي سبب آخر، فإنه حينها سيعاني من انقطاع الخيرات والمنافع التي كانت تأتيه منصاعة وهو على رأس المنصب، فعن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ على الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يوم الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَت الْفَاطِمَةُ) (*)

والأخطر في المسؤولية ليس انقلابها من مرضعة إلى فاطمة فحسب، وإنما حين الحساب يوم القيامة، فالفرق شاسع بين جزاء مستثمر المنصب بالحرام والاستغلال والغش والتسلط، وجني المنافع بغير حق، وبين جزاء الذي تولى المنصب بكفاءة، وكان أهلاً له، وأدى الذي عليه تجاهه من واجب، فنفع الخلق، وخشي الخالق، وعمل ليوم تشخص فيه الأبصار، وعدل فأمن، ومن هذا حاله يجد من الله عوناً في أداء الواجب، واختيار المناسب من الأساليب والوسائل لتحقيق النجاح فيه، إضافة إلى نيل رضوان الله، وحسن مثوبته، وخير الجزاء الذي أعده الله للأخيار من عباده، الذين اتقوه حق تقاته، وعرفوا فالتزموا، ولم يضيعوا رعاياهم.

فهذا جانب آخر من التحذيرات والتوجيهات الموجهة للأمراء والمسؤولين؛ لئلا يقصروا بواجباتهم، ولكي يحجموا عن تولي المسؤولية دون كفاءة، عسى أن ييسر الله متابعة الوقوف عند مزيد من هذه التحذيرات والتوجيهات، في ضوء الهدي القرآني، وسنة خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم يحذر الأمراء والمسؤولين من الانحراف عن الجادة

الحلقة الثالثة والأخيرة

تعرضت الحلقة السابقة إلى التأكيد على أن المسؤولية أمانة عظيمة، معرجة على التحذير من الحرص على تولي المسؤولية، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائفها، فالخزي والندامة سيكونان لمتولي المسؤولية ولم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها، فيخزيه الله تعالى يوم القيامة، ويفضحه، ويندم على ما فرط، وأما من كان أهلاً للولاية، وعدل فيها، فله فضل عظيم، حسب ما بينه النووي في شرحه على صحيح مسلم.

ومن الإشارات القرآنية لاشتراط الكفاءة في المسؤول، تلك الواردة على لسان ابنة الشيخ الكبير التي سقى موسى لها ولأختها ماشيتهما لما وردتا ماء مدين، في حادثة أرَّخها القرآن الكريم، وقد أوصت إحداهما أباهما بتوظيف موسى عنده، لما رأته كفؤاً.

توفيق الوالي الصالح:

مما جاء في الحلقة السابقة أن الكفاءة المشترطة في المسؤول تشمل القدرة والمهارة، إضافة إلى العدالة والأمانة وسوية السلوك، وعند التهاون في اشتراط كفاءة المسؤولين تقع الطامة، حيث إن من علامات الساعة الصغرى إسناد المسؤولية إلى غير أهلها.

والأصل في المسؤولية أنها تكليف لا تشريف، للتبعات المصاحبة لها، ومن تحذيره، صلى الله عليه وسلم، من الحرص على تولي الإمارة، تشبيهها بالمرضعة حال انتفاع المسؤول من مكاسبها، وهو على رأس المسؤولية، وبالفاطمة التي يجف لبنها، وتكف عن الإرضاع، لما يترك المسؤول منصبه، فإنه حينها سيعاني من انقطاع الخيرات والمنافع التي كانت تأتيه وهو على رأس المنصب.

والأخطر في المسؤولية ليس انقلابها من مرضعة إلى فاطمة فحسب، وإنما حين

الحساب يوم القيامة، فالفرق شاسع بين جزاء مستثمر المنصب بالحرام والاستغلال والغش والتسلط، وجني المنافع بغير حق، وبين جزاء الذي تولى المنصب بكفاءة، وكان أهلاً له، وأدى الذي عليه تجاهه من واجب، فنفع الخلق، وخشي الخالق، وعمل ليوم تشخص فيه الأبصار.

ويشجع الإسلام على الزهد في تولي المناصب والمسؤوليات، ومن أساليب هذا التشجيع بيان فضل تولي المسؤولية دون تشوف لها، فالله يُعين المسؤول غير الباحث عن توليها، بخلاف المتشوف لها، فعن عبد الرحمن بن سَمُرَةَ، قال: قال لي النبي، صلى الله عليه وسلم: (يا عَبْدَ الرحمن بن سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إن أُوتِيتَهَا عن مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا من غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عليها) [1]

الراعي الصالح يحسن اختيار المسؤول ويتابع أداءه:

تعيين الموظفين والمسؤولين ينبغي أن يخضع لمعايير الجدارة والأمانة بشفافية دقيقة ونزاهة مطلقة، فيحرم اختيار والٍ على قوم وفيهم أكفأ منه، وبعد اختيار الموظفين والمسؤولين لا بد من متابعة أدائهم، ومراقبة عملهم، من قبل رعاياهم والمسؤولين عنهم، وفي حديث عبد الرحمن بن شِمَاسَةَ، أن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، سألته عن أميرهم، كَيْفَ كان لَهمْ في غَزَاتِهمْ هذه؟ فقال: (ما نَقَمْنَا منه شيئاً؛ إن كان لَيَمُوتُ لِلرَّجُلِ مِنَّا البَعِيرُ، فَيُعْطِيهِ الْبَعِيرَ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطِيهِ الْعَبْدَ، وَيَحْتَاجُ إلى النَّفَقَةِ، فَيُعْطِيهِ النَّفَقَةَ، فقالت: أَمَا إنه لَا يَمْنَعُنِي الذي فَعَلَ في مُحَمَّدِ بن أبي بَكْرٍ أَخِي، أَنْ أُخْبِرَكَ ما سمعت من رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول في بَيْتِي هذا: اللهم من وَلِيَ من أَمْرِ أُمَّتِي شيئاً، فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه، وَمَنْ وَلِيَ من أَمْرِ أُمَّتِي شيئاً، فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ) [2]

فعائشة سألت عن أداء الوالي، ولما تلقت إفادة بحسنها، أثنت عليه، من خلال

1. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب منه.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل...

استشهدت بدعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، للوالي المحسن بأن يرفق الله به، ودعائه على المسيء بأن يشق الله عليه، فمتابعة أداء الوالي منهج راسخ في الإسلام، يتبعه المسؤول الأعلى والفقهاء وأصحاب الرأي.

فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: يسأل حاضرين أحد مجالسه، فيقول: (أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل، أقضيت ما عليَّ؟ قالوا، نعم، قال: لا، حتى أنظر في عمله، أعمل بما أمرته أو لا) [1]

وعن أنس، أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب، فقال: (يا أمير المؤمنين؛ عائذ بك من الظلم، قال، عذت معاذاً، قال: سابقت ابن عمرو بن العاص، فسبقته، فجعل يضربني بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم، ويقدم بابنه معه، فقدم فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط، فاضرب، فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟)[2]

فهذان شاهدان على تقدير عظم الإمارة والمسؤولية في الإسلام، فهي أمانة، حفظها الراشدون من خلفاء المسلمين ورعوها حق رعايتها، فهذا الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لم يكتفِ بأمر الأمراء بالعدل، وإنما ألزم نفسه بمتابعة أخبار ولاته، للتأكد من حسن أدائهم.

وبهذا نختم الحديث في هذه المرحلة عن التحذيرات والتوجيهات الموجهة للأمراء والمسؤولين؛ لئلا يقصروا في واجباتهم، ولكي يحجموا عن تولي المسؤولية دون كفاءة، عسى أن ييسر الله متابعة الوقوف عند مزيد من هذه التحذيرات والتوجيهات، في ضوء الهدي القرآني، وسنة خاتم النبيين والمرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. سنن البيهقي الكبرى: 8 /282.

2. كنز العمال: 12 /294.

الفصل السادس / مناهج وقيم

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يحذر من بهت الناس - الحلقة الأولى	129
.2	يحذر من بهت الناس - الحلقة الثانية	132
.3	يحذر من بهت الناس - الحلقة الثالثة	135
.4	يحذر من بهت الناس - الحلقة الرابعة	138
.5	يحذر من بهت الناس - الحلقة الخامسة	142
.6	يحذر من بهت الناس - الحلقة الساسدة والأخيرة	146
.7	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الأولى	150
.8	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الثانية	153
.9	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الثالثة	156
.10	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الرابعة	159
.11	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الخامسة	192
.12	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة السادسة	165
.13	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة السابعة	168
.14	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الثامنة	171
.15	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة التاسعة	175
.16	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة العاشرة	179
.17	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الحادية عشرة	183
.18	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الثانية عشرة والأخيرة	187

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحذر من بهت الناس

الحلقة الأولى

عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَتَدْرُونَ ما الْغِيبَةُ؟ قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إن كان في أَخِي ما أَقُولُ؟ قال: إن كان فيه ما تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لم يَكُنْ فيه فَقَدْ بَهَتَّهُ) [1]

بهت الإنسان لأخيه جريمة تفوق أكل لحمه ميتاً حال اغتيابه، فالمثل القرآني المضروب للمغتاب جاء في سياق النهي عن مثالب سلوكية، ترتكب في أوساط الناس، ووجود مثل هذه الآفات يفتك بالنسيج المجتمعي والسلم الأهلي، وفيها يقول جل ذكره: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} [2]

الرسول، صلى الله عليه وسلم، يستثير انتباه الصحابة حاضري مجلسه الكريم، في حديثه أعلاه، ليعلمهم، بل يربيهم على نهج التربية والتعليم، فيسألهم عن مفهوم الغيبة لديهم، وفي ضوء أدبهم الجم، رضي الله عنهم، وثقتهم بسلامة ما يتلقونه منه عليه الصلاة والسلام، من الأخبار والعلم والقيم والتوجيهات، فإنهم تركوا الإجابة عن السؤال الموجه إليهم عن الغيبة، له عليه الصلاة والسلام، فهو الأعلم والأدرى بالإجابة الصحيحة، فقالوا: (الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) وهنا تصدى عليه الصلاة والسلام، لتحديد مفهوم الغيبة، بقوله: (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ) يعني أن أي ذكر يكرهه الشخص، يعد غيبة، إذا تلفظ به الناس، طبعاً ضمن محددات وضوابط خاصة بذلك، وهنا يستمر الحوار التعليمي بين الصحابة وبين معلمهم الحكمة والأدب، وما فيه خيرهم، صلى الله عليه وسلم، فيستفسرون عن شمول

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة.
2. الحجرات:12.

الغيبة للذكر الذي يصف وضعاً قائماً، وحقيقة ثابتة بالنسبة إلى المذكور بها، هل يعد هذا الوصف من قبيل الغيبة؟ وهنا تأتي الإجابة الحاسمة منه صلى الله عليه وسلم، التي يحدد بها المفهوم الحقيقي للغيبة، والمتلخص بأنها تعني ذكر الأخ بما يكره مما فيه من عيوب أو مثالب، أما إذا كان ذكره بما يكره من الافتراءات عليه، أي بما ليس به حقيقة، فذلك أمر أفظع وأشد من الغيبة، إذ هو البهت.

البهتان جريمة نكراء:

بهت المسلم من قبل أخيه تجتمع فيه جنايتان عظيمتان، إحداهما ذكر الأخ بما يكره، والثانية بهته بالافتراء عليه بما ليس به، وفي الجريمة الأولى يشترك البهت مع الغيبة في البشاعة والتعدي، لكن الجريمة الثانية يفوق الجرم فيها حد الغيبة المقيتة، ليبلغ مستوى أفظع في المقت والذم والنذالة والحقارة، من خلال إضافة مثلب الافتراء إلى جريمة إيذاء المرء بذكره بما يكره، فتجتمع خصلتان ذميمتان مع بعضهما، فتضخمان الجناية، وتزيدان الإثم.

والبهت ذكرت مادته اللغوية في مواضع قرآنية عديدة، في سياق الذم المدقع، فمريم البتول، عليها السلام، بهتت من بعض قومها حسب ما جاء في قوله تعالى: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً}[1]، وأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بهتت ممن افترى عليها القذف، الذي عاتب الله الذين تفاعلوا مع شائعته بقوله عز وجل: {وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}[2]، فيأثم من يردد التقول بالشائعات، ويسهم في ترويجها دون تحقق، ومعلوم أن نشر الشائعات دون تمحيص يعرض للوقوع في جناية التعدي على الأبرياء، إضافة إلى تعارضه مع مبدأ الستر المرغب فيه، حتى حال صحة الأخبار المنشورة، فليس كل ما يعلم يقال، والرسول، صلى الله عليه وسلم، رغب في أن يستر المسلم أخاه، واعداً من يفعل الستر بالستر يوم القيامة، فقال عليه

1. النساء:156.
2. النور:16.

الصلاة والسلام: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كان في حَاجَةِ أَخِيهِ كان الله في حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عنه كُرْبَةً من كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يوم الْقِيَامَةِ)[1]

فظاعة رمي البريء بالإثم والخطأ:

على درب ذم الفرية والبهتان، يحذر القرآن الكريم من البهتان والإثم المقترفين من قبل الذي يقترف خطيئة قذف البريء بآثام وخطايا لم يقترفها، فيقول عز وجل: {وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً}[2]، وفي موضع قرآني آخر يؤكد رب البرية على وضع هذا السلوك الشائن في منظومة البهتان والإثم المبين، فيقول تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً}[3]

فلن يقبل عذر من ملحقي الأذى بالناس بغير ما اكتسبوا، ومن المنفرات من هذا المنحى السلوكي المنحرف عن جادة الحق ونبل القيم والأخلاق، أن الله سبحانه لما ذم البهتان قرنه بالإثم، في تلازم لفظي ومعنوي دال، فالمؤمن يحرص على النقاء من الإثم ليقينه بمآل الآثمين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، نقياً من رواسب الشر والكفر والنفاق والغل والحسد، وما إلى ذلك من أمراض القلوب، التي من مكوناتها ضخ الشائعات والافتراءات ضد الأبرياء من الخلق، مما يعني اقتراف البهتان والإثم المبين، أعاذنا الله منهما، ويسر سبحانه متابعة الوقوف عند مزيد من مناحي التحذير من بهت الناس، عملاً بتوجيهات ديننا الحنيف، ورسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.
2. النساء:112.
3. الأحزاب: 58.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحذر من بهت الناس

الحلقة الثانية

عن عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، خَطَبَ الناس، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عليه، وقال: (ما تُشِيرُونَ عَلَيَّ فِي قَوْمٍ يَسُبُّونَ أَهْلِي، ما عَلِمْتُ عليهم من سُوءٍ قَطُّ؟ وَعَنْ عُرْوَةَ، قال: لَمَّا أُخْبِرَتْ عَائِشَةُ بِالْأَمْرِ، قالت: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَنْطَلِقَ إلى أَهْلِي؟ فَأَذِنَ لها، وَأَرْسَلَ مَعَهَا الْغُلَامَ، وقال رَجُلٌ من الْأَنْصَارِ: سُبْحَانَكَ ما يَكُونُ لنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بهذا سُبْحَانَكَ، هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) (*)

وقفت الحلقة السابقة عند فظاعة جريمة بهت الخَلْق، والتي تفوق في وقعها وإثمها جناية الغيبة، والاثنتان تشتركان في ذكر الآخرين بما يكرهون، لكن الغيبة تخص ما كان موجوداً ثابتاً في المذكور، أما البهت فيزيد فظاعة وبشاعة عن الغيبة، لما فيه من افتراء على المذكور، بذكره بما يكره مما ليس فيه، والبهت ذكرت مادته اللغوية في مواضع قرآنية عديدة، في سياق الذم المدقع، فمريم البتول، عليها السلام، بهتت من بعض قومها، ومعلوم أن نشر الشائعات دون تمحيص يوقع في ظلم التعدي على الأبرياء، وقد حذر القرآن الكريم من فظاعة رمي البريء بالإثم والخطايا، وأكد رب البرية سبحانه على إدراج هذا السلوك الشائن في منظومة البهتان والإثم المبين.

والله سبحانه ذم البهتان وقرنه بالإثم، في تلازم لفظي ومعنوي دال، فالمؤمن يحرص على النقاء من الإثم ليقينه بمآل الآثمين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله نقياً من رواسب الشر والكفر والنفاق والغل والحسد، وما إلى ذلك من أمراض القلوب.

*صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: {وأمرهم شورى بينهم} الشورى: 38).

حادثة الإفك:

تواصلاً مع ما تمت الإشارة إليه في الحلقة السابقة بشأن البهتان على أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، والذي نزلت آيات مفصلة في سورة النور تدحضه، وتعالج تداعياته، وحديث عروة أعلاه يصف جانباً من تفاصيل تلك الحادثة الأليمة، التي أشغلت النبي، صلى الله عليه وسلم، ودولته الفتية، كون المشكلة تمس ركناً من أركان بيت النبوة، وزوجاً للنبي، صلى الله عليه وسلم، وأماً للمؤمنين، وابنة أحب الرجال لقلبه، وأقربهم منه، فالفتنة المثارة كانت كبيرة الوقع والأثر، والمهم الذي ينبغي التركيز عليه في سياق التحذير من بهت الناس، هو صلة تلك الحادثة الأليمة بالبهت الظالم، فلم يكن مبدأها سوى عملاً بمحظور شرعي، وإثم بين، يتلخص في الاسترسال وراء الظنون دون تمحيص، مما أوقع في انتهاك الحرمات، والمس بالأعراض، واستدعى نزول آيات محكمات فصلنَّ في البهت وأبعاده، وأحكام الآخذين به، ووجهت المجتمع المؤمن برمته إلى المنهج القويم الذي ينبغي اتّباعه في مثل ظرف الإفك، وعلى رأس مضامين هذا المنهج الحذر الشديد من التسرع في البهت، ونشر الإشاعات دون تثبت وتمحيص.

أم المؤمنين عائشة تحدث عن اختلاق قصة الإفك:

ثبت في الصحاح حديث أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، عن قصة الإفك، حيث قالت عن منشأ الحادثة والظروف التي أحاطت بها: (كان رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، إذا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بين أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بها معه، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا في غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ معه بَعْدَ ما أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ في هَوْدَجٍ، وَأُنْزَلُ فيه، فَسِرْنَا حتى إذا فَرَغَ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، من غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا من المَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حين آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حتى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فلما قَضَيْتُ شَأْنِي، أَقْبَلْتُ إلى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ أَظْفَارٍ قد انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ على بَعِيرِي الذي كنت أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فيه، وكان النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لم يَثْقُلْنَ،

ولـم يَغْشَـهُنَّ اللَّحْـمُ، وَإِنَّمَـا يَأْكُلْـنَ الْعُلْقَـةَ مـن الطَّعَـامِ، فلـم يَسْـتَنْكِرِ الْقَـوْمُ حـين رَفَعُـوهُ ثِقَـلَ الْهَـوْدَجِ، فَاحْتَمَلُـوهُ، وَكُنْـتُ جَارِيَـةً حَدِيثَـةَ السِّـنِّ، فَبَعَثُـوا الْجَمَـلَ، وَسَـارُوا، فَوَجَـدْتُ عِقْـدِي بَعْـدَ مـا اسْـتَمَرَّ الْجَيْـشُ، فَجِئْـتُ مَنْزِلَهُـمْ، وَلَيْـسَ فيـه أَحَـدٌ، فَأَمَمْـتُ مَـنْزِلِي الـذي كنـت بِـهِ، فَظَنَنْـتُ أَنَّهُـمْ سَـيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُـونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَـا أنـا جَالِسَـةٌ غَلَبَتْـنِي عَيْنَـايَ فَنِمْـتُ، وكان صَفْـوَانُ بـن الْمُعَطَّلِ السُّـلَمِيُّ ثُـمَّ الذَّكْـوَانِيُّ، مـن وَرَاءِ الْجَيْـشِ، فَأَصْبَحَ عِنْـدَ مَـنْزِلِي، فَـرَأَى سَـوَادَ إِنْسَـانٍ نَائِـمٍ، فَأَتَـانِي، وكان يَـرَانِي قبـل الحِجَـابِ، فَاسْـتَيْقَظْتُ بِاسْـتِرْجَاعِهِ حـين أَنَـاخَ رَاحِلَتَـهُ، فوطـىء يَدَهَـا فَرَكِبْتُهَـا، فَانْطَلَـقَ يَقُـودُ بِي الرَّاحِلَـةَ، حـتى أَتَيْنَـا الْجَيْـشَ بَعْـدَ مـا نَزَلُـوا مُعَرِّسِـينَ فِي نَحْـرِ الظَّهِـيرَةِ، فَهَلَـكَ مـن هَلَـكَ...)[*]

مـا حـدث لأم المؤمنـين عائشـة، رضي اللـه عنهـا، وفـق المعطيـات أعلاه، يمكـن أن يتعرض لـه النـاس بشـكل أو آخـر، لكـن الفـرق كبـير بـين الاسترسـال مـع موجـات الأراجيـف والظنـون، وبـين اتقـاء اللـه في المواقـف، وظـن المؤمنـون بأنفسـهم خـيراً، والتـصرف بالتأكيـد سـيختلف شـكلاً ومضمونـاً وآثـاراً وتداعيـات بـين الموقفـين، مـع التأكيـد عـلى أن بهـت النـاس لا يقتـصر عـلى جانـب سـلوكي دون سـواه، ولا ينحـصر بأنـاس دون غيرهـم، بـل يشـمل جوانـب الحيـاة عـلى اختـلاف أنواعهـا، ويتعلـق بالمبهوتـين والباهتـين، بغـض النظـر عـن أسـمائهم وأنسـابهم، وزمـن وجودهـم ومكانـه، فهـو إثـم مفـترى، جريمتـه نكـراء، أعاذنـا اللـه منهـا، ويـسر سـبحانه متابعـة الوقـوف عنـد مزيـد مـن مناحـي التحذيـر مـن بهـت المسـلم، عمـلاً بتوجيهـات ديننـا الحنيـف، ورسـولنا الكريـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
يحذر من بهت الناس

الحلقة الثالثة

عـن ابـن عَبَّـاسٍ، رضي اللـه عنهمـا، قـال: (شَـهِدْتُ الصَّـلَاةَ يـوم الفِطْـرِ مـع رسـول اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وَأَبِي بَكْـرٍ وَعُمَـرَ وَعُثْمَـانَ، فَكُلُّهُـمْ يُصَلِّيهَـا قبـل الْخُطْبَـةِ، ثُـمَّ يَخْطُـبُ بَعْـدُ، فَـنَزَلَ نَـبِيُّ اللَّـهِ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، فَـكَأَنِّي أَنْظُـرُ إليـه حـين يُجَلِّـسُ الرِّجَـالَ بيـده، ثُـمَّ أَقْبَـلَ يَشُـقُّهُمْ، حـتى أتى النِّسَـاءَ مـع بِـلَالٍ، فقـال: {يـا أَيُّهَـا النـبي إذا جَـاءَكَ الْمُؤْمِنَـاتُ يُبَايِعْنَـكَ عـلى أَنْ لَا يُشْـرِكْـنَ بِاللَّـهِ شـيئاً ولا يَسْرِقْـنَ ولا يَزْنِـينَ ولا يَقْتُلْـنَ أَوْلَادَهُـنَّ ولا يَأْتِـينَ بِبُهْتَـانٍ يَفْتَرِينَـهُ بـين أَيْدِيهِـنَّ وَأَرْجُلِهِـنَّ} حـتى فَـرَغَ مـن الْآيَـةِ كُلِّهَـا ثُـمَّ قـال حـين فَـرَغَ: أَنْـتُنَّ عـلى ذلـك؟ فقالـت امْـرَأَةٌ وَاحِـدَةٌ ـ لـم يُجِبْـهُ غَيْرُهَـا: نعـم يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، ـ لَا يَـدْرِي الْحَسَـنُ مـن هِـيَ ـ قـال: فَتَصَدَّقْـنَ، وَبَسَـطَ بِـلَالٌ ثَوْبَـهُ، فَجَعَلْـنَ يُلْقِـينَ الْفَتَـخَ، وَالْخَوَاتِيـمَ فِي ثَـوْبِ بِـلَالٍ)[*]

ركـزت الحلقـة السـابقة عـلى بهتـان أم المؤمنـين عائشـة، رضي الله عنهـا، بالإفـك المفترى، والـذي لـم ينطلـق مبـدأه سـوى مـن عمـل بمحظـور شرعـي، وإثـم بَـيّن، يتلخـص في الاسترسـال وراء الظنـون، دون تمحيـص، ممـا أوقـع في انتهـاك الحرمـات، والمـس بالأعـراض، فنزلـت آيـات محكمـات، فصلـن في البهـت وأبعـاده، وأحـكام الآخذيـن بـه، ووجهـت المجتمـع المؤمـن برمتـه إلى المنهـج القويـم، الـذي ينبغـي اتّباعـه في مثـل ظـرف الإفـك، وعـلى رأس مضامـين هـذا المنهـج الحـذر الشـديد مـن التـسرع في البهـت، ونـشر الإشـاعات دون تثبـت وتمحيـص.

ومـا تعرضـت لـه أم المؤمنـين عائشـة، رضي اللـه عنهـا، مـن هـذا الابتـلاء، يمكـن أن يتعـرض لـه النـاس بشـكل أو آخـر، لكـن الفـرق كبـير بـين الاسترسـال مـع موجـات الأراجيـف والظنـون، وبـين اتقـاء اللـه في المواقـف، وظَـن المؤمنـين حيالهـا بأنفسـهم خـيراً، والتـصرف بالتأكيد

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الممتحنة، باب {إذا جاءك المؤمنات يبايعنك}(الممتحنة:12).

سيختلف شكلاً ومضموناً وآثاراً وتداعيات بين الموقفين، مع التأكيد على أن بهت الناس لا يقتصر على جانب سلوكي دون سواه، ولا ينحصر بأناس دون غيرهم، بل يشمل جوانب الحياة على اختلاف أنواعها، ويتعلق بالمبهوتين والباهتين، بغض النظر عن أسمائهم وأنسابهم، وزمن وجودهم ومكانه، فهو إثم مفترى، جريمته نكراء.

مبايعة النساء على تجنب البهتان:

حديث ابن عباس، رضي الله عنهما، المثبت نصه آنفاً، يتضمن ذكر اقتباس من الآية الكريمة الثانية عشرة من سورة الممتحنة، التي خاطب فيها رب العزة نبيه الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، ببنود مبايعة النساء، ومن تلك البنود الرئيسة، لزوم تقيدهن بتجنب إتيان البهتان المفترى، والذي فصلت الآية الكريمة في وصفه، وبيان مواضع اقترافه المحتملة، فألزمتهن بالامتناع عن البهتان الذي يكون بين الأيدي والأرجل، ويرى بعض المفسرين، ومنهم الرازي في التفسير الكبير، أن قوله تعالى: {وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ} نهي عن النميمة، أي لا تنم إحداهن على غيرها فيورث القطيعة، ويحتمل أن يكون نهياً عن إلحاق الولد بأزواجهن، قال ابن عباس: لا تُلحق بزوجها ولداً ليس منه، قال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن، وليس المعنى نهيهن عن الزنا؛ لأن النهي عن الزنى قد تقدم في الآية الكريمة.[1]

أما الزمخشري، فيقول: كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هو ولدي منك، كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً؛ لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين.[2]

وقد ذهب السعدي في تفسيره إلى أبعد من ذلك، فقال: البهتان الافتراء على الغير، أي لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن مع أزواجهن، أو تعلق ذلك بغيرهم.[3]

---

1. التفسير الكبير: 29 /267.
2. الكشاف: 4 /519.
3. تفسير السعدي: 1 /858.

فالبهتان والافتراء آفات سلوكية ينبغي لأسوياء الناس ذكوراً وإناثاً الترفع عنها والتحرز من الوقوع في وزرها.

ذم الافتراء:

الشواهد من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على ذم الافتراء عديدة، منها قول رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ من أَعْظَمِ الْفِرَى، أَنْ يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إلى غَيْرِ أبيه، أو يُرِيَ عَيْنَهُ ما لم تَرَ، أو يقول على رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، ما لم يَقُلْ) [1]

والفِرى بكسر الفاء والقصر، جمع فرية، وهي الكذبة العظيمة، التي يتعجب منها. [2]

جاء في فيض القدير أن من أعظم الكذبات أن ينتسب الرجل إلى غير أبيه، فيقال ابن فلان، وهو ليس بابنه، (أو يُرِيَ عَيْنَهُ ما لم تره) أي ينسب الرؤية إلى عينه تارة، يقول: رأيت في منامي كذا، ولا يكون رآه؛ لأنه جزء من الوحي، فالمخبر عنه بما لم يقع كالمخبر عن الله مما لم يلقه إليه، وجمع الثلاثة في خبر لشدة المناسبة بينها، وأنها من أفحش أنواع الافتراء؛ فالكذب على المصطفى، صلى الله عليه وسلم، كذب على الله، وما ينطق عن الهوى، والرؤيا جزء من أجزاء النبوة والمنام طرف من الوحي، فإذا كذب، فقد كذب في نوع من الوحي، ومن ادعى لغير أبيه، فقد استهزأ بنص القرآن، ويكفي في ذلك لعن امرأة إن أدخلت على قوم من ليس منهم. [3]

أعاذنا الله من البهتان والافتراء، ويسر سبحانه متابعة الوقوف عند مزيد من مناحي التحذير من البهت والافتراء، عملاً بتوجيهات ديننا الحنيف، ورسولنا الكريم، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب منه.
2. عمدة القاري: 24 /168.
3. فيض القدير: 2/ 534 - 535.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

يحذر من بهت الناس

الحلقة الرابعة

يخاطب الله في قرآنه الكريم مكذبي رسوله، صلى الله عليه وسلم، فيقول عز وجل:

{إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ* يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ* قُتِلَ الخَرَّاصُونَ} [1]

تعرضت الحلقة السابقة لجانب من عقد مبايعة النساء الذي نصت عليه الآية الثانية عشرة من سورة الممتحنة، متضمنة شروط تلك المبايعة، ومنها لزوم تقيدهن بتجنب إتيان البهتان المفترى من بين الأيدي والأرجل، ومن أشهر تفاسير ذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك، وهو ليس ابنه، ويعتبر هذا الافتراء من أعظم الفرى، كما جاء في الحديث الصحيح.

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ:

الحديث عن البهت ومرادفاته من الإفك والتخريص والكذب وما شابه ذلك، تطرق لذكره والإشارة إليه القرآن الكريم، في مواضع عديدة من آياته الكريمة، وفي الآية 9 من سورة الذاريات المثبت نصها أعلاه، ذكر لنوع من الإفك الممارس من الخراصين المذمومين في قوله تعالى: {قُتِلَ الخَرَّاصُونَ}، ويرى الزمخشري أن معنى القتل هنا أصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى لعن وقبح، والخرّاصون الكذابون المقدرون ما لا يصح، وهم أصحاب القول المختلف، واللام إشارة إليهم، كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون. [2]

---

1. الذاريات: 8 - 10.
2. الكشاف: 4/ 400.

ويجـزم صاحـب أضـواء البيـان أن لفظـة {عـن} في قولـه سـبحانه: {يُؤْفَـكُ عَنْـهُ مَـنْ أُفِـكَ} سـببية، كقولـه تعـالى: {قَالُـواْ يَـا هُـودُ مَـا جِئْتَنَـا بِبَيِّنَـةٍ وَمَـا نَحْـنُ بِتَـارِكِي آلِهَتِنَـا عَـن قَوْلِـكَ...} [1]؛ أي بسـبب قولـك ومـن أجلـه، والضمـير المجـرور بعـن راجـع إلى القـول المختلـف، ومعـنى: {يؤفـك} أي يـصرف عـن الإيمـان باللـه ورسـوله، {عنـه} أي عـن ذلـك القـول المختلـف، أي بسـببه، {مـن أُفـك} أي مـن سـبقت لـه الشـقاوة في الأزل، فحـرم الهـدى، وأفـك عنـه؛ لأن هـذا القـول المختلـف يكـذب بعضـه بعضـاً ويناقضـه، ومـن أوضـح الأدلـة عـلى كـذب القـول وبطلانـه، اختلافـه وتناقضـه، كمـا لا يخفـى، فهـذا القـول المختلـف الـذي يحـاول كفـار مكـة أن يصـدوا بـه النـاس عـن الإسـلام، الـذي يقـول فيـه بعضهـم إن الرسـول سـاحر، وبعضهـم يقـول شـاعر، وبعضهـم يقـول كـذاب، ظاهـر البطـلان؛ لتناقضـه، وتكذيـب بعضـه لبعـض، فـلا يـصرف عـن الإسـلام بسـببه إلا مـن صرف، أي صرفـه اللـه عـن الحـق لشـقاوته في الأزل، فمـن لـم يكتـب عليـه في سـابق علـم اللـه الشـقاوة والكفـر، لا يصرفـه عـن الحـق قـول ظاهـر الكـذب والبطـلان لتناقضـه. [2]

الأفاك الأثيم:

ذم القـرآن الكريـم الأفاكـين، فبـين أنهـم جهـة مسـتقبلة لتعليمـات الشـياطين وتوجيهاتهـم، فقـال سـبحانه: {هَـلْ أُنَبِّئُكُـمْ عَـلَى مَـن تَـنَزَّلُ الشَّـيَاطِينُ* تَـنَزَّلُ عَـلَى كُلِّ أَفَّـاكٍ أَثِيـمٍ* يُلْقُـونَ السَّـمْعَ وَأَكْثَرُهُـمْ كَاذِبُـونَ} [3]

الأفـاك مذمـوم باسـمه ووصفـه؛ لأن آفـة الإفـك هـي مادتهمـا، فكيـف إذا مـا لصـق بهـا ذم شـديد آخـر، المعـبر عنـه بلفـظ أثيـم، إضافـة إلى أن أصحابـه موجهـين مـن الشـياطين؟

يبـين صاحـب التسـهيل لعلـوم التنزيـل أن الأفـاك الكـذاب، والأثيـم الفاعـل للإثـم، يعـني بذلـك الكُهـان، وفي هـذا رد عـلى مـن قـال إن الشـياطين تنزلـت عـلى سـيدنا محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، بالكهانـة؛ لأنهـا لا تـنزل إلا عـلى أفـاك أثيـم، وكان صـلى اللـه عليـه وسـلم، عـلى غايـة

1. هود:53
2. أضواء البيان: 7/ 438.
3. الشعراء: 221 - 223.

الصدق والبر.[1]

فالأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين، فيتلقون منهم ظنوناً وأمارات؛ لنقصان علمهم، فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها.[2]

وقد جاء في الحديث الصحيح عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، زَوْجِ النبي، صلى الله عليه وسلم، أنها سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إِنَّ المَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي العَنَانِ، وهو السَّحَابُ، فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ، فَتُوحِيهِ إِلى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ من عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ).[3]

وفي رواية صحيحة، أخرى قالت رضي الله عنها: (سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، نَاسٌ عن الكُهَّانِ، فقال: ليس بِشَيْءٍ، فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يحدثونا أَحْيَانًا بِشَيْءٍ فَيَكُونُ حَقًّا؟ فقال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: تِلْكَ الْكَلِمَةُ من الحَقِّ يَخْطَفُهَا من الْجِنِّيِّ، فَيَقُرُّهَا في أُذُنِ وَلِيِّهِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ)[4]

ويدرج تحت وصم الأفّاك الأثيم، الكذابون المفترون المزيفون للأمور والأخبار، وبخاصة ممن يبهتون الناس ويتهمونهم بالسوء ظلماً وعدواناً.

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ:

توعد الله الأفاك بالويل، فقال عز وجل: {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}[5]

والأفّاك مبالغة من الإفك، وهو الكذب، والأثيم من الإثم، وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث، ولفظها على العموم.[6]

والويل يقال إنه واد في جهنم، ويميل صاحب أضواء البيان، إلى أن الأظهر أن لفظة:

---

1. التسهيل لعلوم التنزيل: 3 /91.
2. تفسير البيضاوي: 4/ 256.
3. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة.
4. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الكهانة.
5. الجاثية:7.
6. التسهيل لعلوم التنزيل: 4/ 38.

{وَيْـلٌ} كلمـة عـذاب وهـلاك، وأنهـا مصـدر لا لفـظ لـه مـن فعلـه، وأن المسـوغ للابتـداء بهـا مـع أنهـا نكـرة، كونهـا في معـرض الدعـاء عليهـم بالهـلاك.[1]

فالإفـك آفـة وزرهـا عظيـم، وتداعياتهـا شـديدة السـلبية والوقـع، وعمـاده الكـذب، وهـو وبـاء لأصحابـه الخـزي والعـار في داري الدنيـا والآخـرة، واللـه عـز وجـل يقـول في الأفاكـين، ومـن كان عـلى شـاكلتهم: {فِي قُلُوبِهِـم مَّـرَضٌ فَزَادَهُـمُ اللّـهُ مَرَضـاً وَلَهُـم عَـذَابٌ أَلِيـمٌ بِمَـا كَانُـوا يَكْذِبُـونَ}[2] أعاذنـا اللـه مـن البهـت والإفـك، ومـن الويـل وجهنـم وعذابهـا، ويـسر سـبحانه متابعـة الوقـوف عنـد مزيـد مـن مناحـي التحذيـر مـن البهـت والإفـك والافـتراء، عمـلاً بتوجيهـات ديننـا الحنيـف، ورسـولنا الكريـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. أضواء البيان: 7/ 190.
2. البقرة:10.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
يحذر من بهت الناس

الحلقة الخامسة

نفى الله عن رسوله محمد، صلى الله عليه وسلم، الفرية، فقال عز وجل: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً} (*)

وقفت الحلقة السابقة عند مواضع من آيات التنزيل، التي تطرقت لذكر البهت ومرادفاته من الإفك والتخريص والكذب، وما شابه ذلك، ومن ذلك الآيات 8 - 12 من سورة الذاريات، التي ذُم فيها الخراصون، وذُكر فيها إفك أصحاب القول المختلف الذي يكذب بعضه بعضاً ويناقضه، ووقفت الحلقة كذلك عند إخبار القرآن الكريم عن تنزل الشياطين على كل أفاك أثيم، كما في الآيات 221 - 223 من سورة الشعراء، حيث أُلصق بالإفك المذموم اسمٌ ووصفٌ، ذم شديد آخر، عبر عنه بلفظ (أثيم)، إضافة إلى أن أصحابه موجهون من الشياطين، وتم الاستدلال بروايتين صحيحتين عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، حول إفك الكهان الذين يلقون السمع إلى الشياطين، فيتلقون منهم ظنوناً وأمارات؛ لنقصان علمهم، فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم مِائَةَ كَذْبَةٍ من عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وتوعد الله الأفاكين بالويل، كما في الآية السابعة من سورة الجاثية، فالإفك آفة سلوكية مقيتة عمادها الكذب، وأصحابها في قلوبهم نفاق ومرض، يجدر الحذر منهم، وتجنب اقتفاء أثرهم.

دحض تهمة افتراء القرآن:

زعم أهل الباطل أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، افترى القرآن، أي أنه من عنده، وليس من عند الله، وقد دحضت آيات قرآنية عديدة هذا الزعم الباطل، نافية عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، هذه التهمة المنكرة، والآية الكريمة الرابعة من سورة الفرقان،

* الفرقان:4.

والمثبت نصها آنفاً، تبين أن الذين كفروا قالوا إن هذا القرآن كذب اختلقه محمّد، صلى الله عليه وسلم، وأعانه على افترائه قوم آخرون، قيل: اليهود، وقيل: أشخاص بأعيانهم.[1]

جاء في التفسير الكبير، أن الافتراء افتعال من فريت، ويقال: فيمن شتم امرءاً بما ليس فيه، افترى عليه.

والله تعالى وصف كلامهم بأنه ظلم، وبأنه زور، أما إنه ظلم؛ فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح إلى من كان مبرأ عنه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه، وذلك هو الظلم. وأما الزور، فلأنهم كذبوا فيه، وقال أبو مسلم: الظلم تكذيبهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، والرد عليه، والزور كذبهم عليهم.[2]

وفي الآية التالية للمثبت نصها آنفاً من سورة الفرقان، إخبار عن افتراء آخر على القرآن الكريم، وعلى الموحى به إليه صلى الله عليه وسلم، فقال عز وجل: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}[3]

وفي الكشاف: {أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} ما سطَّره المتقدمون، من نحو أحاديث، جمع أسطار أو أسطورة، كأحدوثة، {اكْتَتَبَهَا} كتبها لنفسه وأخذها، وقرىء: اكتُتبها على البناء للمفعول، والمعنى اكتتبها كاتب له؛ لأنه كان أمّياً لا يكتب بيده، وذلك من تمام إعجازه، ثم حذفت اللام، فأفضى الفعل إلى الضمير، فصار اكتتبها إياه كاتب، كقوله: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ}[4]، فإن قيل: كيف؟ قيل: اكتتبها فَهِي تُمْلَى عَلَيْهِ، وإنما يقال أمليت عليه فهو يكتتبها؟ وأجاب الزمخشري عن ذلك، فقال: فيه وجهان، أحدهما أراد اكتتابها أو طلبه، فهي تملى عليه، أو كتبت له وهو أمّي، فهي تملى عليه، أي تلقى عليه من كتابه يتحفظها، لأنّ صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب.[5]

---

1. أضواء البيان: 6 /13.
2. التفسير الكبير: 24 /44.
3. الفرقان:5.
4. الأعراف: 155.
5. الكشاف: 3 /269.

وقد رد الله على هذا الافتراء منهم، فقال سبحانه: {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}[1]

يقول القرطبي: أي قل يا محمد، أنزل هذا القرآن الذي يعلم السر، فهو عالم الغيب، فلا يحتاج إلى معلم، وذكر السر دون الجهر؛ لأنه من علم السر، فهو في الجهر أعلم، ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم، لما زاد عليها، وقد جاء بفنون تخرج عنها، فليس مأخوذاً منها، وأيضاً ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً، كما تمكن محمد، صلى الله عليه وسلم، فهلا عارضوه، فبطل اعتراضهم من كل وجه.[2]

ظلم المفترين على الله:

وصم الله المفتري عليه، ليس بالظلم فحسب، بل بمرتكب أشد الظلم، فقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}[3]، وتكرر وصم المفترين على الله الكذب بصيغة: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى...} في تسع آيات قرآنية، موزعة على سبع سور، وفق الآتي:

التسلسل	السورة	الآية
1	الأنعام	21
2	الأنعام	93
3	الأنعام	144
4	الأعراف	37
5	يونس	17
6	هود	18
7	الكهف	15
8	العنكبوت	68
9	الصف	7

1. الفرقان:6.
2. تفسير القرطبي: 13/ 4.
3. الأنعام:21.

ومـن هـذه الآيـات الكريمـة مـا ربـط اللـه فيهـا بشـاعة ظلـم المفتريـن عليـه الكـذب، بفظاعـة تكذيبهـم بمـا أنـزل سـبحانه مـن الآيـات والكتـاب، فقـال تعالى:{وَمَـنْ أَظْلَـمُ مِمَّـنِ افْـتَرَى عَـلَى اللّـهِ كَذِبـاً أَوْ كَـذَّبَ بِآيَاتِـهِ إِنَّـهُ لاَ يُفْلِـحُ الظَّالِمُـونَ}[*] وتكـرر ذكـر هـذا النسـق باللفـظ أو المعـنى، أو بهمـا معـاً، في خمـس مـن الآيـات التسـع السـابقة، وذلـك عـلى النحـو الآتي:

التسلسل	السورة	الآية
1	الأنعام	21
2	الأنعام	93
3	الأعراف	37
4	يونس	17
5	العنكبوت	68

أعاذنـا اللـه مـن البهتـان والافـتراء والكـذب، وتكذيـب الحـق، ويـسر سـبحانه متابعـة الوقـوف عنـد مزيـد مـن مناحـي التحذيـر مـن البهـت والافـتراء، عمـلاً بتوجيهـات ديننـا الحنيـف، ورسـولنا الكريـم، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* الأنعام:21.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
يحذر من بهت الناس
الحلقة السادسة والأخيرة

عن عبد اللَّهِ، قال: قال رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم: {عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فإن الصِّدْقَ يهدي إلى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يهدي إلى الجَنَّةِ، وما يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فإن الكَذِبَ يهدي إلى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يهدي إلى النَّارِ، وما يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا}[1]

وقفت الحلقة السابقة عند دحض تهمة افتراء القرآن، وقد وصف الله بالظلم والزور كلام الكافرين الزاعمين بأن القرآن كذب اختلقه محمّد، صلى الله عليه وسلم، وأعانه على افترائه قوم آخرون، ومثلهم الذين قالوا عن القرآن بأنه أساطير الأولين، وبينت الآيات القرآنية بشاعة المفترين على الله الكذب، مكررة ذمهم وتبكيتهم بصيغة: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى...} في تسع آيات، وذلك في سبع سور، هي: الأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، والكهف، والعنكبوت، والصف. وفي سياق التحذير من بهت الناس، وعماده الكذب والافتراء، يأتي الحديث الشريف أعلاه، ليحث على تحري الصدق، ويحذر من الكذب، ويبين فضل الصدق، وقبح الكذب.

الحث على الصدق والتحذير من الكذب:

يأمر الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديث عبد الله بن مسعود المثبت نصه أعلاه، بتحري الصدق، وذلك بصريح العبارة، ووضوح المعنى، فيقول: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ)؛ أي الزموا القول الحق، وداوموا عليه، وهو ضد الكذب، وقد يستعمل في أفعال الجوارح، نحو صدق فلان في القتال، إذا أوفاه حقه.[2]

والله تعالى أثنى على المؤمنين الذين صدقوا العهد مع الله، فقال سبحانه: {مِنَ

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.
2. شرح الزرقاني: 4/ 524.

الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} [1]

فالصدق المأمور به يشمل ما يصدر عن المرء من أقوال يلفظها لسانه، فينبغي أن توافق الحقيقة دون تزييف أو تزوير أو التواء، وكذلك يشمل أفعال الناس ومواقفهم، التي ينبغي كذلك أن تبتعد عن بهت الناس، وعن كل ما يتنافى مع قيم الحق، وواقع الحقيقة.

وفي الحديث نفسه تحذير واضح من آفة الكذب، وهو نقيض الصدق، فيقول عليه الصلاة والسلام: (وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ)، وفعل الأمر (إياكم) يفيد التحذير.

فضل الصدق ومنازل الصادقين:

في ضوء الحديث المثبت نصه آنفاً، يذكر النووي أن الصدق يهدي إلى العمل الصالح الخالص من كل مذموم، والبر اسم جامع للخير كله، وقيل البر الجنة، ويجوز أن يتناول العمل الصالح والجنة.

قال العلماء: هذا فيه حث على تحري الصدق، وهو قصده والاعتناء به، ويكتب الله المداوم على الصدق ومعتاده، بأنه صديق؛ لمبالغته فيه.

وفي الحديث إشعار بحسن خاتمة الصديق، وإشارة إلى أن الصديق يكون مأمون العاقبة. [2]

وقد أمر الله المؤمنين بأن يبذلوا الجهود ليكونوا مع الصادقين، فقال عز وجل:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} [3]

يقول الرازي: واعلم أنه تعالى لما حكم بقبول توبة الثلاثة الذين خلفوا، ذكر ما يكون كالزاجر عن فعل ما مضى، وهو التخلف عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الجهاد، فقال: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ...}، في مخالفة أمر الرسول، صلى الله عليه

1. الأحزاب:23.
2. تحفة الأحوذي: 6/ 91.
3. التوبة:119.

وسلم {وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} يعني مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه في الغزوات، ولا تكونوا متخلفين عنها، وجالسين مع المنافقين في البيوت.[1]

والصدق المأمور باتباع نهج أصحابه في هذه الآية الكريمة، يحتمل أن يراد به صدق اللسان، فالثلاثة الذين تاب الله عليهم بعد تخلفهم عن غزوة تبوك صدقوا، ولم يعتذروا بالكذب، فنفعهم الله بذلك، ويحتمل أن يراد منه أعم من صدق اللسان، وهو الصدق في الأقوال والأفعال والمقاصد والعزائم.[2]

ذم الكذب والكاذبين:

في مقابل الإشادة بالصدق، والثناء على الصادقين، يذم الرسول، صلى الله عليه وسلم، في حديثه الشريف أعلاه الكذب، ويبكت الكاذبين.

يقول النووي: وأما الكذب فيوصل إلى الفجور، وهو الميل عن الاستقامة، وقيل: الانبعاث في المعاصي، وفي هذا تحذير من الكذب والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه كثر منه، فعرف به، وكتبه الله لمبالغته كذاباً إن اعتاده، ومعنى يكتب هنا يحكم له بذلك، فالمرء يستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم، أو صفة الكذابين وعقابهم، والمراد إظهار ذلك للمخلوقين؛ إما بأن يكتبه في ذلك ليشتهر بحظه من الصفتين في الملأ الأعلى، وإما بأن يلقي ذلك في قلوب الناس وألسنتهم، كما يوضع له القبول، والبغضاء، وإلا فقدر الله تعالى وكتابه السابق، قد سبق بكل ذلك، والله أعلم.[3]

تمحيص الصادقين من الكاذبين:

المواقف والابتلاءات تمحص الناس، وتظهر الحقائق، فزاعم الإيمان والوفاء والصدق، وغير ذلك من معاني الخير والصلاح ظاهر، يثبت على ذلك عند المحن والمصاعب، أما إن سقط في الاختبار، فتخلى عن تلك المعاني أو بعضها، فيكون ما أظهره زيفاً بعيداً عن

1. التفسير الكبير: 16/ 175.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 2 /87.
3. صحيح مسلم بشرح النووي: 16 /160 - 161.

الحقيقة والواقع؛ أي يكون كذاباً فيما أظهر بخلاف ما يبطنه ويكنه، والله تعالى يقول: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}[1]

وفي الهدف المراد من الابتلاء، يقول ابن كثير: ليعلم الله الذين صدقوا في دعوى الإيمان، ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة.[2]

فهذا ما تيسر التطرق إليه في قضية بهت الناس وظلمهم بالافتراء، وما تعلق من ذلك من قضايا وموضوعات، وشواهد من آيات القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والآثار المنسوبة إلى السلف الصالح، عسى أن يفيد التدبر فيها في التشجيع على تحري الصدق واتّباعه، وتجنب الكذب والحذر من الأفاكين، متأسين بالرسول الصادق الأمين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. العنكبوت:3.
2. تفسير ابن كثير: 3 /405.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة الأولى

يخاطب رب البرية رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، فيقول تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً}[1]

فاتحة سورة الأحزاب هذه تتضمن أمراً بالتقوى، ونهياً عن طاعة الكافرين والمنافقين، ومعناهما كما يقول السعدي في تفسيره: أي يا أيها الذي منَّ الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك، باستعمال تقواه التي أنت أولى بها من غيرك، والتي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأد إلى عباده وحيه، وابذل النصيحة للخلق، ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ولرسوله، ولا منافق قد أبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده، فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، فيضلوك عن الصواب.[2]

الأمر بالتقوى ووجوهها:

الأمر بالتقوى يعني الأمر بامتثال أمر الله، واجتناب نهيه[3]، وهي دائماً الدافع على كل خير، الرادع عن كل شر.[4]

ومن أدق ما قيل في معنى التقوى، ما نسب إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، من قوله: التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.[5]

وقيل: إن وجوه التقوى مختلفة؛ فمتقٍ اتقى الله بجهل، ومتقٍ اتقاه بعلم، ومتقٍ

1. الأحزاب: 1.
2. تفسير السعدي: 1 /657.
3. أضواء البيان: 4 /254.
4. أضواء البيان: 8/ 51.
5. موسوعة الكلم الطيب.

اتقاه بعجب، ومتقٍ اتقاه برؤية قيام الله تعالى على عباده، ومتقٍ اتقاه عن كل ما سواه.[1]

الرازي في تفسيره الكبير وقف عند أمر الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، بالتقوى في هذه الآية الكريمة، وقال: الأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به، إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس، وللساكت اسكت، والنبي، عليه السلام، كان متقياً، فما الوجه فيه؟ ويجيب عن هذا التساؤل من وجهين:

أحدهما منقول، وهو أنه أُمِر بالمداومة، أي دم على ما أنت عليه، والثاني وهو معقول لطيف، وهو أن الملك يتقي منه عباده على ثلاثة أوجه، بعضهم يخاف من عقابه، وبعضهم يخاف من قطع ثوابه، وثالث يخاف من احتجابه، فالنبي لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول، ولا بالمعنى الثاني، وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام في الدنيا، وكيف والأمور الدنيوية شاغلة، والآدمي في الدنيا تارة مع الله، وأخرى مقبل على ما لا بُدّ منه، وإن كان معه الله، وإلى هذا إشارة بقوله: {إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}[2]، يعني يرفع الحجاب عني وقت الوحي، ثم أعود إليكم، كأني منكم، فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور.[3]

أمر الناس بالتقوى:

لأهمية التقوى أمر الله بها نبيه المختار محمداً، صلى الله عليه وسلم، وأمر بها كذلك الناس والمؤمنين، وقد تكرر أمر الناس بها في أكثر من آية قرآنية كريمة، منها في فاتحتي سورتي النساء والحج، فيقول رب العالمين: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً}[4]، ويقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}[5]

وعند التدبر في هاتين الآيتين من سورتي النساء والحج، يظهر أن الأمر بالتقوى جاء في فاتحة كل منهما، مما يؤكد أهميتها عند الله، ولزومها لخلقه سبحانه، يقول الرازي: علل الأمر

1. تفسير السلمي: 2 /18.
2. فصلت: 6.
3. التفسير الكبير: 25 /164 – 165.
4. النساء:1.
5. الحج: 1.

بالتقوى في هذه السورة – النساء - بما يدل على معرفة المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق، وكمال علمه، وكمال حكمته، وجلاله، وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد، وهو قوله: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}[1] فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ، ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ، على السورة الدالة على المعاد، وتحت هذا البحث أسرار كثيرة.[2]

ففي آية النساء حديث عن خلق الناس، تصدره الأمر بالتقوى، وفيها نفسها تكرر الأمر ثانية بالتقوى بعد التذكير بأن الله خلق المأمورين -وهم الناس- من نفس واحدة، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء، حيث أتبع هذا التذكير بالأمر بالتقوى ثانية، فقال تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ} ويفسر تكرار الأمر بالتقوى في الآية الكريمة، فيقول أبو السعود: تكرير للأمر، وتذكير لبعض آخر من موجبات الامتثال به، فإن سؤال بعضهم بعضاً بالله تعالى بأن يقولوا أسألك بالله، وأنشدك الله، على سبيل الاستعطاف، يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه، وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل، لمزيد التأكيد والمبالغة في الحمل على الامتثال، بتربية المهابة، وإدخال الروعة، لوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته، وتساءلون أصله تتساءلون، فطرحت إحدى التاءين تخفيفاً.[3]

فهذه وقفة عند بعض مناحي الأمر الرباني بالتقوى، عسى أن ييسر العلي القدير متابعة الوقوف عند مزيد منها، وأن يشرح الله صدورنا لهداه، وأن يلهمنا تقواه، لننال حبه سبحانه ورضاه، وحب نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. الحج:1.
2. التفسير الكبير: 9/ 129.
3. تفسير أبي السعود: 2/ 138.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة الثانية

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّتَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ}(*)

تعرضت الحلقة السابقة لأمر الله سبحانه نبيه، صلى الله عليه وسلم، بالتقوى، وذلك في الآية الأولى من سورة الأحزاب، والتي نهاه فيها كذلك عن طاعة الكافرين والمنافقين، والأمر بالتقوى يعني الأمر بامتثال أمر الله، واجتناب نهيه، ولأهمية التقوى أمر الله بها نبيه، صلى الله عليه وسلم، وأمر بها كذلك الناس والمؤمنين، ومن وجوه أمر الله سبحانه نبيه، صلى الله عليه وسلم، بالتقوى، أنه أمر بالمداومة على ما هو عليها منها، فهو كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته، فكان له في كل ساعة تقوى متجددة، وقيل: إن وجوه التقوى مختلفة؛ فمتق بجهل، ومتق بعلم، ومتق بعجب، ومتق برؤية قيام الله تعالى على عباده، ومتق اتقاه عن كل ما سواه، وقال بعضهم: أفضل العبادة التقوى؛ فإنه الطريق إلى الله، والوسيلة به.

أمر الناس بالتقوى:

تكرر أمر الناس بالتقوى في أكثر من آية قرآنية كريمة، منها في فاتحتي سورتي النساء والحج، وفي الآية القرآنية الكريمة من سورة لقمان المثبت نصها أعلاه، يأمر رب البرية الناس بالتقوى، جاء في تفسير أبي السعود، أن قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول، والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة، ولفظ {النَّاسُ} ينتظم

* لقمان: 33.

الذكـور والإنـاث حقيقـة، والمأمـور بـه مطلـق التقـوى، الـذي هـو التجنـب عـن كل مـا يؤثـم مـن فعـل وتـرك، والتربيـة مـع الإضافـة إلى ضمـير المخاطبـين لتأييـد الأمـر، وتأكيـد إيجـاب الامتثـال بـه، ترهيبـاً وترغيبـاً، أي احـذورا عقوبـة مالـك أموركـم ومربيكـم.[1]

ويذكـر الـرازي أن حقيقـة التقـوى جـاءت في القـرآن، والغـرض الأصـلي منهـا الإيمـان تـارة، والتوبــة أخــرى، والطاعــة ثالثــة، وتــرك المعصيــة رابعــاً، والإخــلاص خامســاً.[2]

ويقـول في موضـع آخـر مـن تفسـيره: اعلـم أنـه تعـالى أمـر النـاس بالتقـوى، فدخـل فيـه أن يتقـي كل محـرم، ويتقـي تـرك كل واجـب، وإنمـا دخـل فيـه الأمـران؛ لأن المتقـي إنمـا يتقـي مـا يخافـه مـن عـذاب اللـه تعـالى، فيـدع لأجلـه المحـرم، ويفعـل لأجلـه الواجـب، ولا يـكاد يدخـل فيـه النوافـل؛ لأن المكلـف لا يخـاف بتركهـا العـذاب، وإنمـا يرجـو بفعلهـا الثـواب، فـإذا قـال: {اتَّقُـواْ رَبَّكُـمُ} فالمـراد اتقـوا عـذاب ربكـم.[3]

الأمر بالتقوى وخشية يوم القيامة:

جـاء أمـر النـاس بالتقـوى في آيـة سـورة لقمـان المثبتـة آنفـاً مقترنـاً بأمرهـم بخشـية يـوم الديـن، {يومـاً لا يَجْـزِي وَالِـدٌ عَـن وَلَـدِهِ وَلَا مَوْلُـودٌ هُـوَ جَـازٍ عَـن وَالِـدِهِ شَـيْئاً}، ويفـسر الـرازي الوعـظ بالتقـوى هنـا، أنـه تعـالى لمـا كان واحـداً أوجـب التقـوى البالغـة، فـإن مـن يعلـم أن الأمـر بيـد اثنـين لا يخـاف أحدهمـا، مثـل مـا يخـاف لـو كان الأمـر بيـد أحدهمـا لا غـير، ثـم أكـد الخـوف بذكـر اليـوم الـذي يحكـم اللـه فيـه بـين العبـاد، ثـم أكـده بقولـه:{لا يَجْـزِي وَالِـدٌ عَـن وَلَدِهِ}وذلـك لأن المجـرم إذا علـم أن لـه عنـد الملـك مـن يتكلـم في حقـه، ويقـضي مـا يخـرج عليـه برفـد مـن كسـبه، لا يخـاف مثـل مـا يخـاف إذا علـم أنـه ليـس لـه مـن يقـضي عنـه مـا يخـرج عليـه، ثـم ذكـر شـخصين في غايـة الشـفقة والمحبـة، وهمـا الوالـد والولـد، ليسـتدل بـالأدنى عـلى الأعـلى، وذكـر الولـد والوالـد جميعـاً فيـه لطيفـة، وهـي أن مـن الأمـور مـا يبـادر الأب إلى التحمـل عـن الولـد كدفـع

1. تفسير أبي السعود: 6 /91.
2. التفسير الكبير: 2 /20.
3. التفسير الكبير: 23 /3.

المال، وتحمل الآلام، والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله عن الوالد، ولا يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد، كالإهانة، فإن من يريد إحضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الابن أن يدفع الإهانة عن والده، ويحضر هو بدله، فإذا انتهى الأمر إلى الإيلام، يهون على الأب أن يدفع الإيلام عن ابنه، ويتحمله هو بنفسه، فقوله تعالى: {لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ} في دفع الآلام، {وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً} في دفع الإهانة، وفي قوله: {لا يَجْزِي} وقوله: {وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ} لطيفة أخرى، وهي أن الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغي، ولا يكون من شأنه؛ لأن المرء إذا كان يخيط شيئاً يقال إنه يخيط، ولا يقال هو خياط، وكذلك من يحيك شيئاً، ولا يكون ذلك صنعته، يقال هو يحيك، ولا يقال هو حائك، إذا علم هذا فالابن من شأنه أن يكون جازياً عن والده؛ لما له عليه من الحقوق، والوالد يجزي لما فيه من الشفقة، وليس بواجب عليه ذلك، فقال في الوالد لا يجزي، وقال في الولد: {وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ}.(*)

فهذه وقفة أخرى عند بعض مناحي الأمر الرباني بالتقوى، عسى أن ييسر العلي القدير متابعة الوقوف عند مزيد منها، وأن يشرح الله صدورنا لهداه، وأن يلهمنا تقواه، لننال حبه سبحانه ورضاه، وحب نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التفسير الكبير: 25 /143.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة الثالثة

أمر الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، بالتقوى، وأمر الناس بها، وكذلك أمر سبحانه المؤمنين بالتقوى في عدد من آياته القرآنية، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ}[1]

تعرضت الحلقة السابقة، إلى أمر الناس بالتقوى، حيث تكرر مثل هذا الأمر لهم في أكثر من آية قرآنية كريمة، منها في فاتحتي سورتي النساء والحج، وفي الآية القرآنية الكريمة (33) من سورة لقمان، وذلك في خطاب يعم حكمه المكلفين منهم عند النزول، والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة، ولفظ {النَّاس} ينتظم الذكور والإناث حقيقة، والمأمور به مطلق التقوى، والذي يدخل فيه أن يتقي كل محرم، ويتقي ترك كل واجب، وقد جاء أمر الناس بالتقوى في الآية (33) من سورة لقمان مقترناً بأمرهم بخشية يوم الدين، {يوماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً}

آيات أمر الله المؤمنين فيها بالتقوى ثم بقيم والتزامات:

تكرر أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بالتقوى في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، جاء ذلك في سياق الحديث عن مسائل عقائدية وتشريعية مختلفة، وفي عدد من السور، ففي الآية (119) من سورة التوبة، المثبت نصها أعلاه، ذات الألفاظ محدودة العدد، أمر صريح من رب العالمين لعباده المؤمنين بالتقوى، ملحقاً بأمرهم أن يكونوا مع الصادقين، والتحلي بالصدق من صفات المتقين، فالأمر بذلك جاء في الآية الكريمة من قبيل الأمر بالخاص بعد العام، ومن نظير ذلك قوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً}[2]، حيث أَمر المؤمنين بالقول السديد بعد أمرهم بالتقوى، وفي سورة البقرة، أمر الله المؤمنين

1. التوبة:119.
2. الأحزاب:70.

بأن يذروا ما بقي من الربا بعد أمرهم العام بالتقوى، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[1]

وفي سورة المائدة أمروا بابتغاء الوسيلة إلى الله والجهاد في سبيله، بعد أمرهم بالتقوى كذلك، فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[2]

آيات أمر الله المؤمنين فيها بقيم والتزامات ثم بالتقوى:

بخلاف ترتيب الأوامر السابقة بين الأمر بالتقوى وقيم والتزامات أخرى، حيث تصدر الأمر بالتقوى أولاً كما في الآيات القرآنية الكريمة سالفة الذكر، فإن آيات أخرى جاء فيها الأمر بالتقوى لاحقاً للأمر بقيم والتزامات، أي إن الأمر فيها كان للخاص قبل العام، كما في الآيات الكريمة 2 و8 و57 من سورة المائدة، حيث يقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ ...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[3]

ويقول جل شأنه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[4]

ويقول عز وجل:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[5]

ففي هذه الآيات الكريمة جاء الأمر الرباني فيها بالتقوى لاحقاً لأوامر ربانية أخرى سبقته.

وفي سورة الحجرات، جاء الأمر بالتقوى في عدد من آياتها على هذه الشاكلة، كما في فاتحتها، حيث يقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[6] وفي الآية العاشرة منها يقول تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا

1. البقرة:278.
2. المائدة:35.
3. المائدة:2.
4. المائدة:8.
5. المائدة:57.
6. الحجرات:1.

بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[1]، وبعد النهي عن بعض المثالب السلوكية في الآية الثانية عشرة منها، أمر الله المؤمنين بالتقوى، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}[2]

وفي الآية التاسعة من سورة المجادلة، نهى الله المؤمنين عن مثالب سلوكية، وأمرهم بقيم والتزامات أخرى، قبل أن يتبع ذلك أمراً منه سبحانه لهم بالتقوى، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[3]

مما سبق يلحظ المتدبر أن أمر المؤمنين بالتقوى وإن تعددت مواضعه وصيغه وأساليبه سواء سبق أوامر أخرى في الآية نفسها أو جاء تعقيباً على أوامر أخرى، فإنه يدل على أهمية التقوى والحاجة إليها في تعديل أنماط السلوك، وتعزيز الإيجابي منه، وأن صاحبها محصن بحماية ربانية، ومطالب باستقامة ظاهرها كباطنها في الطهر والنقاء، وأن التقوى ذات صلة وثيقة بمختلف أنواع السلوك، ودونها يكون الخلل والاعوجاج، والزيغ عن الحق، والتعرض لمخاطر التلبس بصفات المنحرفين عن منهج الله القويم.

فهذه وقفة أخرى عند بعض مناحي الأمر الرباني بالتقوى، عسى أن ييسر العلي القدير متابعة الوقوف عند مزيد منها، وأن يشرح الله صدورنا لهداه، وأن يلهمنا تقواه، لننال حبه سبحانه ورضاه وحب نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الحجرات:10.
2. الحجرات:12.
3. المجادلة:9.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة الرابعة

يأمر الله نبيه محمداً، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، بالتقوى في فاتحة سورة الطلاق، فيقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً}(*)

وقفت الحلقة السابقة عند آيات قرآنية أمر الله المؤمنين فيها بالتقوى ثم بقيم والتزامات، وفي آيات أخرى أمر الله المؤمنين فيها بقيم والتزامات ثم بالتقوى، أي بخلاف النسق الأول، جاء ذلك في سياق الحديث عن مسائل عقائدية وتشريعية مختلفة، وفي عدد من السور، ففي الآية (119) من سورة التوبة، أمر صريح من رب العالمين لعباده المؤمنين بالتقوى، ملحقاً به أمرهم أن يكونوا مع الصادقين، ومن نظير ذلك أمرهم في الآية (70) من سورة الأحزاب بالتقوى، ثم أمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً، وفي الآية (278) من سورة البقرة، أمر الله المؤمنين بأن يذروا ما بقي من الربا بعد أمرهم العام بالتقوى، وفي الآية (35) من سورة المائدة أمروا بابتغاء الوسيلة إلى الله والجهاد في سبيله، بعد أمرهم بالتقوى كذلك، أما في الآيات الكريمة (2 و8 و11 و57) من سورة المائدة، وفي الآيات (1 و10 و12) من سورة الحجرات، وفي الآية التاسعة من سورة المجادلة، فقد جاءت بأوامر ونواهٍ، ثم ألحق بها الأمر بالتقوى في النص نفسه، مما يدل على أن الأمر بالتقوى، وإن تعددت مواضعه وصيغه وأساليبه، إلا أنه يتعلق بالتزام بالغ الأهمية، والحاجة إليه في تعديل أنماط السلوك، وتعزيز الإيجابي منها، وإطفاء السلبي، وأن التقوى ذات صلة وثيقة بمختلف أنواع السلوك، ودونها يكون الخلل والاعوجاج، والزيغ عن الحق، والتعرض لمخاطر التلبس بصفات المنحرفين عن منهج الله القويم.

---

* الطلاق:1.

أمر مشترك:

في الآية القرآنية التي افتتحت بها سورة الطلاق، أمر مشترك من الله بالتقوى لنبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين برسالته السماوية، جاء في أضواء البيان، أن قوله تعالى: {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ} النداء للنبي، صلى الله عليه وسلم، وقوله:{إِذَا طَلَّقْتُمُ} خطاب لعموم الأمة، قالوا: كان النداء للنبي، صلى الله عليه وسلم، والخطاب للأمة تكريماً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتكليفاً للأمة، وقيل: خوطبت الأمة في شخصية الرسول، صلى الله عليه وسلم، كخطاب الجماعة في شخصية رئيسها.[1]

وجاء في تفسير البحر المحيط، أن الخطاب في هذه الآية الكريمة له عليه الصلاة والسلام، جاء بصيغة مخاطبة الجمع على سبيل التعظيم، أو لأمته على سبيل تلوين الخطاب، أقبل عليه السلام أولاً، ثم رجع إليهم بالخطاب، أو على إضمار القول، أي قل لأمتك إذا طلقتم، أو له ولأمته، وكأن ثم محذوف تقديره: (يا أيها النبي، وأمة النبي إذا طلقتم) فالخطاب له ولهم، أي أنت وأمتك.[2]

وقال الزمخشري: خص النبي، صلى الله عليه وسلم، بالنداء، وعم بالخطاب؛ لأنّ النبي إمام أمّته، وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم يا فلان، افعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدّمه، واعتباراً لترؤسه، وأنه مدرة قومه، ولسانهم، والذي يصدرون عن رأيه، ولا يستبدون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وسادّاً مسدّ جميعهم.[3]

وقوله تعالى:{وَاتَّقُواْ اللَّهَ رَبَّكُمْ} قال مقاتل: اخشوا الله، فلا تعصوه فيما أمركم.[4] أي في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات.[5]

فمن صيغ أمر الله بالتقوى في القرآن الكريم، التوجه به للنبي، صلى الله عليه وسلم، ولأمته في السياق نفسه.

---

1. أضواء البيان:8 /208 - 209.
2. تفسير البحر المحيط:8 /277.
3. الكشاف:4 /554.
4. التفسير الكبير:30 /29.
5. تفسير السعدي:1/ 869.

أمر أهل الكتاب بالتقوى:

أهـل الكتـاب مـن أصنـاف النـاس الذيـن تلقـوا الأمـر بالتقـوى، حيـث وجـه اللـه أمـراً مشـتركاً بهـا لهـم وللمؤمنـين، في قولـه تعالى:{...وَلَقَـدْ وَصَّيْنَـا الَّذِيـنَ أُوتُـواْ الْكِتَـابَ مِـن قَبْلِكُـمْ وَإِيَّاكُـمْ أَنِ اتَّقُـواْ اللّـهَ...}[1]

يقـول الـرازي: المـراد بالآيـة أن الأمـر بتقـوى اللـه شريعـة عامـة للأمـم جميعهـا، لـم يلحقهـا نسـخ، ولا تبديـل، بـل هـو وصيـة اللـه في الأولـين والآخريـن.[2]

وفي تفسـير البحـر المحيـط، أن معـنى {وصينـا} أمرنـا أو عهدنـا إليهـم وإليكـم، و{مـن قبلكـم} يحتمـل أن يتعلـق بـ(أوتـوا)، وهـو الأقـرب، أو بـ{وصينـا}، والمعـنى أن الوصيـة بالتقـوى هـي سـنة اللـه مـع الأمـم الماضيـة، فلسـتم مخصوصـين بهـذه الوصيـة، و{الذيـن أوتـوا الكتـاب} هـو عـام في الكتـب الإلهيـة، ولا ضرورة تدعـو إلى تخصيـص الذيـن أوتـوا الكتـاب باليهـود والنصارى، كمـا ذهـب إليـه بعـض المفسريـن؛ لأن وصيـة اللـه بالتقـوى لـم تـزل مـذ أُوجـد العالـم، فليسـت مخصوصـة باليهـود والنصـارى.[3]

فلـم يكـن مـن قبيـل الصدفـة أن اشـترك المسـلمون وأهـل الكتـاب في تلقـي الأمـر بالتقـوى مـن رب العالمـين، فالأمـر مقصـود، يؤكـد أن اللـه أمـر بهـا عبـاده السـابقين واللاحقـين، وسـيبقى الأمـر بهـا لأهميتهـا قائمـاً إلى أن يـرث اللـه الأرض ومـا عليهـا.

فهـذه وقفـة أخـرى عنـد بعـض مناحـي الأمـر الربـاني بالتقـوى، عـسى أن ييـسر اللـه العـلي القديـر متابعـة الوقـوف عنـد مزيـد منهـا، وأن يـشرح اللـه صدورنـا لهـداه، وأن يلهمنـا تقـواه، لننـال حبـه سـبحانه ورضـاه وحـب نبيـه محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. النساء:131.
2. التفسير الكبير: 11/ 56.
3. تفسير البحر المحيط: 3 /382.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة الخامسة

يأمر رب العالمين رسله جميعاً بالتقوى، فيقول سبحانه:{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}[1]

وقفت الحلقة السابقة عند أمر الله بالتقوى لنبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين برسالته السماوية، كما جاء في الآية القرآنية التي افتتحت بها سورة الطلاق، وفي آيات قرآنية أخرى أمر أهل الكتاب بالتقوى، ووجه الله أمراً مشتركاً بها لهم وللمؤمنين في الآية (131) من سورة النساء، مما يدل على أن الوصية بالتقوى هي سنة الله مع الأمم جميعها، الماضية والحاضرة والقادمة.

أمر الله رسله، عليهم السلام، بالتقوى:

لم يقتصر الأمر بالتقوى على بعض خلقه دون سواهم، بل تكرر ورود الأمر الرباني بها لخلقه جميعاً، ومنهم الرسل، عليهم السلام، كما في الآية الكريمة أعلاه، التي نبهت على أن الرسل، عليهم السلام، متفقون على التوحيد، وعلى الاتقاء من معصية الله تعالى، ويجيب الرازي عن تساؤل يتعلق بكيف يكون دين الرسل، عليهم السلام، واحداً وشرائعهم مختلفة؟ فيقول: المراد من الدين ما لا يختلفون فيه، من معرفة ذات الله تعالى وصفاته، وأما الشرائع فإن الاختلاف فيها لا يسمى اختلافاً في الدين، فكما يقال في الحائض والطاهر من النساء إن دينهن واحد، وإن افترق تكليفهما، فكذا هاهنا، ويدل على ذلك قوله تعالى:{وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}، فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى، واتقاء معاصيه، فلا مدخل للشرائع، وإن اختلفت في ذلك.[2]

ويرى مفسرون أن أمر الأنبياء، عليهم السلام، مشمولة بالأمر بالتقوى في قوله

1. المؤمنون:51 - 52.
2. التفسير الكبير:23 /91 - 92.

تعالى:{وأنا ربكم فاتقون}، فيقول الأندلسي: "وإن كان قيل للأنبياء، فأممهم داخلون بالمعنى، ومعنى الأمة هنا الملة والشريعة، والإشارة بهذه إلى الحنيفية السمحة؛ ملة إبراهيم، عليه السلام، وهو دين الإسلام".[1]

دعوة الأنبياء أقوامهم للتقوى:

عني أنبياء الله، عليهم السلام، بالحث على التقوى، وفي القرآن الكريم شواهد عديدة دالة على هذه العناية، حيث صدرت عن الأنبياء، عليهم السلام، أوامر لأقوامهم ووصايا بالتقوى، كما كان من إبراهيم، عليه السلام، حسب قوله عز وجل:{وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[2]، وتضمنت سورة الشعراء الإخبار عن أمر عدد من الأنبياء، عليهم السلام، أقوامهم بالتقوى، فنوح، عليه السلام، حث قومه على التقوى، حسب ما جاء في قوله عز وجل:{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}[3]

وتكرر الإخبار القرآني عن مثل هذا الحث المتكرر على التقوى في سورة الشعراء نفسها عبر آيات متتالية منها، وذلك واضح في الآيات (123 - 184)، حيث تركز الأمر بالتقوى في هذه الآيات الكريمة بصيغة لفظيتين رئيستين، إحداهما بالأمر المباشر {فاتقوا} و{اتقوا}، وقد تكرر الأمر بالتقوى بلفظ {فاتقوا} في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، منها ثماني مرات في سورة الشعراء وحدها، وجاء مقروناً بطلب النبي، صلى الله عليه وسلم، من قومه أن يطيعوه، كما أخبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}، وتكرر ذكر هذه الآية الكريمة منسوبة إلى قول أحد الأنبياء، عليهم السلام، في ثماني آيات من سورة الشعراء، نسب في اثنتين منها إلى نوح، وذلك في الآيتين (108 و110)، ومثلهما لهود، في الآيتين (126 و131)، ومثلهما كذلك لصالح، وذلك في الآيتين (144 و150)، بينما لوط وشعيب لم ينسب إليهما الأمر بالتقوى بهذه الصيغة في الآيات المحددة من سورة الشعراء، سوى مرة واحدة

1. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:4/ 146.
2. العنكبوت:16.
3. الشعراء:105 - 110.

للـوط، وذلـك في الآيـة (163)، ومـرة لشـعيب، في الآيـة (179).

أمـا الأمـر بالتقـوى بلفـظ {واتقـوا} حسـب المتضمـن في الآيـات الكريمـة المشـار إليهـا آنفـاً مـن سـورة الشـعراء، فلـم يـرد فيهـا سـوى مرتـين، وذلـك في الآيتـين (132 و184)، بينمـا ورد في القـرآن الكريـم الأمـر بالتقـوى عـلى هـذا النحـو بمـا في ذلـك الآيتـين المشـار إليهـا آنفـاً مـن سـورة الشـعراء في (42) موضعـاً، موزعـة عـلى (40) آيـة كريمـة، حيـث تكـرر مرتـين في كل مـن الآيتـين (203) مـن سـورة البقـرة، و(69) مـن سـورة الأنفـال.

والصيغـة الثانيـة مـن صيـغ الحـث عـلى التقـوى حسـب مـا جـاء في آيـات سـورة الشـعراء المشـار إليهـا آنفـاً، جـاءت بصيغـة الاسـتفهام الإنـكاري، المسـتثير للسـامعين، ولمـن وجـه إليهـم الخطـاب: {أَلَا تَتَّقُـونَ} وتكـرر ذلـك في خمـس آيـات منهـا، نسـب التلفـظ بـه في الآيـة (106) إلى نـوح، عليـه السـلام، وإلى هـود في الآيـة (124)، وإلى صالـح في الآيـة (142)، وإلى لـوط في الآيـة (161)، وإلى شـعيب في الآيـة (177)، ولـم يتكـرر ذكـر هـذه الصيغـة في القـرآن الكريـم إلا مـرة واحـدة أخـرى، وكان ذلـك في الآيـة (124) مـن سـورة الصافـات.

تركـيز الأنبيـاء، عليهـم السـلام، عـلى التقـوى خـلال مناقشـتهم الدعويـة مـع أقوامهـم يـدل عـلى أهميتهـا البالغـة، وأنهـا محـك للخلـق، يتميـز بـه غثهـم مـن سـمينهم، وصالحهـم مـن طالحهـم، وهـي محلهـا القلـوب، مصداقـاً لقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم:(التَّقْوَى هاهنـا، وَيُشِـيرُ إلى صَـدْرِهِ ثَـلَاثَ مَـرَّاتٍ)(*)

فهـذه وقفـة أخـرى عنـد بعـض مناحـي الأمـر الربـاني بالتقـوى، عـسى أن ييـسر اللـه العـلي القديـر متابعـة الحديـث عـن الأمـر بالتقـوى، الموجـه مـن اللـه للنـاس والمؤمنـين والنبيـين، وخاتمهـم النـبي محمـدٍ، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة السادسة

يقول عز وجل: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}(*)

وقفت الحلقة السابقة عند التدبر في تكرار ورود الأمر الرباني بالتقوى لخلقه جميعاً، ومنهم الرسل، عليهم السلام، الذين حثوا أممهم على التقوى، ولذلك شواهد عديدة من القرآن الكريم، تدل على هذا الحث، حيث صدرت عن الأنبياء، عليهم السلام، أوامر لأقوامهم ووصايا بالتقوى، وتكرر الأمر بالتقوى بلفظ {فاتقوا} في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، منها ثماني مرات في سورة الشعراء وحدها، وجاء مقروناً بطلب النبي، صلى الله عليه وسلم، من قومه أن يطيعوه، وذلك حسب قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}، وبلفظ {واتقوا} في الآيتين 132 و184،من سورة الشعراء، وجاء حثهم على التقوى بصيغة الاستفهام الإنكاري، المستثير للسامعين، في خمس آيات من السورة نفسها، نسب التلفظ به في الآية 106 إلى نوح، عليه السلام، وإلى هود في الآية 124، وإلى صالح في الآية 142، وإلى لوط في الآية 161، وإلى شعيب في الآية 177، ولم يتكرر ذكر هذه الصيغة في القرآن الكريم إلا مرة واحدة أخرى، وذلك في الآية 124 من سورة الصافات.

وتركيز الأنبياء، عليهم السلام، على أمر أقوامهم بالتقوى التي محلها القلوب، خلال مناقشتهم الدعوية معهم، يدل على أهميتها البالغة، وأنها من أبرز محاور الدعوة إلى الله ودينه القويم.

أمر الحواريين بالتقوى:

عملاً بمنهج الأنبياء، عليهم السلام، في أمر أقوامهم بالتقوى، أمر عيسى بن مريم،

* المائدة:112.

عليه السلام، الحواريين بها، وبخاصة حين سألوه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، كما في الآية القرآنية الكريمة 112 من سورة المائدة، والمثبت نصها أعلاه، وفي التسهيل لعلوم التنزيل، أن قوله لهم: {اتقوا الله} يحتمل أن يكون زجراً عن طلب المائدة، واقتراح الآيات، ويحتمل أن يكون زجراً عن الشك الذي يقتضيه قولهم: هل يستطيع ربك؟ أو عن البشاعة التي في اللفظ، وإن لم يكن فيه شك.[1]

وجاء في التفسير الكبير، أن فيه وجهين، الأول: قال عيسى {اتقوا الله} في تعيين المعجزة، فإنه جار مجرى التعنت والتحكم، وهذا من العبد في حضرة الرب جرم عظيم، ولأنه أيضاً اقتراح معجزة بعد تقدم معجزات كثيرة، وهو جرم عظيم. الثاني: أنه أمرهم بالتقوى لتصير التقوى سبباً لحصول هذا المطلوب، كما قال: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ}[2][3]

أمر المؤمنين وأولي الألباب بالتقوى:

ضمن الأوامر الصريحة والضمنية للمؤمنين بالتقوى، يخاطبهم رب البرية في سياق الحث على إعداد الزاد للآخرة، فيقول عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[4]

جاء في أضواء البيان، أن النداء أولاً بالتقوى لخصوص المؤمنين، والأمر بالنظر لعموم كل نفس؛ لأن المنتفع بالتقوى خصوص للمؤمنين، والنظر مطلوب من كل نفس، فالخصوص للإشفاق، والعموم للتحذير، و(غد) تطلق على المستقبل المقابل للماضي، كما قال الشاعر:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

وعليه أكثر استعمالاتها في القرآن، كقوله تعالى عن إخوة يوسف: {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[5] وقوله: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً* إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ..}[6][7]، فارتباط التقوى بحصائد الأعمال التي تتم المحاسبة عليها في الآخرة وثيق، ففيها النجاة والفوز المبين.

وتخلل أمر الله للمؤمنين بالتقوى، أمرهم بحق تقاته، فقال جل شأنه: {يَا أَيُّهَا

1. التسهيل لعلوم التنزيل، 1 /193.
2. الطلاق: 2 - 3.
3. التفسير الكبير: 12/ 108.
4. الحشر:18.
5. يوسف:12.
6. الكهف:23 - 24.
7. أضواء البيان: 8 /52.

الَّذِيـنَ آمَنُـواْ اتَّقُـواْ اللّـهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُـنَّ إِلاَّ وَأَنتُـم مُّسْـلِمُونَ}[1]

قيـل: إن {حَـقَّ تُقَاتِـهِ} نسـخها {فَاتَّقُـوا اللَّـهَ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ...}[2]، وقيـل: لا نسـخ؛ إذ لا تعـارض، فـإن العبـاد أمـروا بالتقـوى عـلى الكمـال فيمـا اسـتطاعوا؛ تحـرزا مـن الإكـراه وشـبهه.[3] يذكـر الزمخـشري أن {حـق تقاتـه} واجـب تقـواه، ومـا يحـق منهـا، وهـو القيـام بالواجـب، واجتنـاب المحـارم ونحـوه، و{فاتقـوا اللـه مـا اسـتطعتم}[4]، يريـد بالغـوا في التقـوى حـتى لا تتركـوا مـن المسـتطاع منهـا شـيئاً، وعـن عبـد اللـه بـن مسـعود: هـو أن يطـاع فـلا يعـصى، ويشـكر فـلا يكفـر، ويذكـر فـلا ينـسى.[5]

خير الزاد التقوى:

تخلـل الأوامـر القرآنيـة بالتقـوى، بيـان أنهـا خـير الـزاد، فقـال عـز وجـل: {الحَـجُّ أَشْـهُرٌ مَّعْلُومَـاتٌ فَمَـن فَـرَضَ فِيهِـنَّ الْحَـجَّ فَـلاَ رَفَـثَ وَلاَ فُسُـوقَ وَلاَ جِـدَالَ فِي الْحَـجِّ وَمَـا تَفْعَلُـواْ مِـنْ خَـيْرٍ يَعْلَمْـهُ اللّـهُ وَتَـزَوَّدُواْ فَـإِنَّ خَـيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى وَاتَّقُـونِ يَـا أُوْلِي الأَلْبَـابِ}[6]، وعن سـبب نزول هـذه الآية الكريمـة، يقـول ابـن عَبَّـاسٍ، رضي الله عنهمـا: (كان أَهْـلُ الْيَمَنِ يَحُجُّـونَ ولا يَـتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُـونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُـونَ، فـإذا قَدِمُـوا مَكَّـةَ سَـأَلُوا النـاس، فَأَنْـزَلَ اللـه تَعَـالَى: {وَتَزَوَّدُوا فـإن خَيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى})[7]

قـال بعضهـم: معنـاه تـزودوا لسـفر الدنيـا بالطعـام، وتـزودوا لسـفر الآخـرة بالتقـوى، فـإن خـير الـزاد التقـوى، ويقـال: {خَـيْرَ الـزَّادِ} هـو التـوكل عـلى اللـه، وأن لا يـؤذي أحـداً لأجـل الـزاد والطعـام.[8]

فهـذه وقفـة أخـرى عنـد بعـض مناحـي الأمـر الربـاني بالتقـوى، عـسى أن ييـسر اللـه العـلي القديـر متابعـة الوقـوف عنـد مزيـد منهـا، وأن يـشرح اللـه صدورنـا لهـداه، وأن يلهمنـا تقـواه، لننال حبـه سـبحانه ورضـاه، وحـب نبيـه محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. آل عمران:102.
2. التغابن:16.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 1 /115.
4. التغابن: 16.
5. الكشاف: 1/ 422 - 423.
6. البقرة:197.
7. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} (البقرة: 197).
8. تفسير السمرقندي: 1/ 159.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة السابعة

يقول رب البرية جل في علاه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [1]

في سياق استدلال الحلقة السابقة بشواهد دالة على تركيز الأنبياء، عليهم السلام، على أمر أقوامهم بالتقوى، فإنها أشارت إلى أمر عيسى، عليه السلام، الحواريين بالتقوى، وبخاصة حين سألوه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، كما في الآية القرآنية الكريمة 112 من سورة المائدة، والتقوى التي أمر الله عز وجل بها رسوله محمداً، صلى الله عليه وسلم، وإخوانه النبيين والمؤمنين والناس أجمعين، خصص الله لأهلها جزاء ومثوبة جزيلة، ينعمون بها في الدنيا والآخرة.

ثمار التقوى:

الأدلة الشرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية على ثمار التقوى كثيرة، منها المبين في الآية القرآنية الكريمة 28 من سورة الحديد، والمثبت نصها أعلاه، والتي تشير إلى شيء كريم من جزاء المتقين، يفسر الإخبار العام عنه، كالذي في قوله تعالى: {إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ} [2]

ويدل ظاهر الأمر بتقوى الله في الآية الكريمة، على أنه عام لهذه الأُمّة جميعها[3]، ويرى بعض المفسرين أنه موجه للمؤمنين من أهل الكتاب، ففي التفسير الكبير أن معنى قوله تعالى: {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ} أي نصيبين من رحمته، لإيمانكم أولاً بعيسى، وثانياً بمحمد، عليه الصلاة والسلام، ونظيره قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ} [4]

1. الحديد:28.
2. محمد:36.
3. أضواء البيان: 6 /236.
4. القصص:54.

وبهذا الصدد طرح الرازي تساؤلاً حول إيتائهم كفلين، وإيتاء المؤمنين كفلاً واحداً، وأجاب بأنه لا يبعد أن يكون النصيب الواحد، أزيد قدراً من النصيبين، فإن المال إذا قسم بنصفين، كان الكفل الواحد نصفاً، وإذا قسم بمائة قسم، كان الكفل الواحد جزءاً من مائة جزء، فالنصيب الواحد من القسمة الأولى أزيد من عشرين نصيباً من القسمة الثانية، فكذا ها هنا، ثم قال تعالى: {وَيَجْعَل لَّكُمْ} أي يوم القيامة، {نُوراً تَمْشُونَ بِهِ} وهو النور المذكور في قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [1] {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} ما أسلفتم من المعاصي، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. [2]

ومن أدلة مثوبة المتقين في الدارين، قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [3]، فالله أعد جزاء واسعاً للمحسنين من المتقين، ففي الدنيا لهم حسنة، ويوفون أجرهم في الآخرة بغير حساب.

جاء في التسهيل لعلوم التنزيل، أن قوله تعالى: {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا} يحتمل أن يتعلق بأحسنوا، والمعنى أن الذين أحسنوا في الدنيا لهم حسنة في الآخرة، أو يتعلق بحسنة، والحسنة على هذا حسن الحال، والعافية في الدنيا، والأول أرجح. [4]

والله سبحانه يُبكت الذين لم يؤمنوا، ولم يتقوا من أهل الكتاب، لتفويتهم فرصة عظيمة لمغفرة ذنوبهم، ودخولهم جنات النعيم، فيقول عز وجل: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [5]

---

1. الحديد:12.
2. التفسير الكبير: 29 /215.
3. الزمر:10.
4. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/ 192 - 193.
5. المائدة:65.

الآخرة خير لمن اتقى:

أعد الله لأهل الجنة من النعيم الجزيل، ما يعجز الناس في دنياهم عن إدراك كنهه، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا مجال لمقارنة نعيم الآخرة بملذات الدنيا مهما تعاظمت، فهو خير لمن اتقى، مصداقاً لقوله عز وجل: {.. قُلْ مَتَاعُ الدُّنيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [1]

وقد جاء هذا البيان القرآني المبين لتفوق متاع الآخرة المعد للمتقين، في سياق الرد على موقف المتخاذلين الذين خشوا الناس أشد من خشية الله، حسب المبين في صدر الآية الكريمة، حيث يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}[2]

وقد استنبط الرازي وجوهاً لتفوق نعيم الآخرة على متاع الدنيا، وهي: أن نِعم الدنيا قليلة، ونِعم الآخرة كثيرة، والثاني أن نِعم الدنيا منقطعة، ونِعم الآخرة مؤبدة، والثالث أن نِعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمكاره، ونِعم الآخرة صافية عن الكدرات، والرابع أن نِعم الدنيا مشكوكة؛ فإن أعظم الناس تنعماً لا يعرف كيف تكون عاقبته في اليوم الثاني، ونِعم الآخرة يقينية، وكل هذه الوجوه توجب رجحان الآخرة على الدنيا، إلا أن هذه الخيرية إنما تحصل للمؤمنين المتقين، فلهذا المعنى ذكر تعالى هذا الشرط، وهو قوله: {لِمَنِ اتَّقَى}. [3]

فهذه وقفة أخرى عند بعض مناحي الأمر الرباني بالتقوى، والمثوبة الموعودة من الله عليها، عسى أن ييسر الله العلي القدير ختم الوقوف عند مزيد من ثمار التقوى، ونسأله سبحانه، أن يشرح صدورنا لهداه، وأن يلهمنا تقواه، لننال حبه سبحانه ورضاه وحب نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. النساء:77.
2. النساء:77.
3. التفسير الكبير، 10 /149.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة الثامنة

يقول عز وجل:{لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ}[1]

وقفت الحلقة السابقة عند بعض ثمار التقوى المستنبطة من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن خلالها بكّت الله الذين لم يؤمنوا ولم يتقوا؛ لتفويتهم فرصة عظيمة لمغفرة ذنوبهم، ودخولهم جنات النعيم، ومن جزاء المتقين، الذي أخبرت عنه آيات التنزيل، أن الله وعدهم بِكِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ، وأن يَجْعَل لَّهم نُوراً يَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَهمْ، كما جاء في الآية الكريمة 28 من سورة الحديد.

والله تعالى أمر المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى، وبين لهم ما في هذا الاتقاء من الفوائد، فقال تعالى:{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـذِهِ الْدُّنْيَا حَسَنَةٌ}[2]، ومعنى الحسنة هنا دخول الجنة، وقيل: هي للتعظيم؛ يعني حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها.

وثمار التقوى تتوج بفوز أهلها بنعيم الآخرة، التي هي خير لهم وأبقى، وهذا التفوق في الخيرية لصالح نعيم الآخرة، يبرز من وجوه عدة، من ناحية القلة والكثرة، والانقطاع والديمومة، والتلبس بالهموم والكدر، والصفاء من ذلك، والشك واليقين، والخيرية في ذلك إنما تحصل للمتقين.

---

1. الزمر:20.
2. النحل: 30.

للمتقين غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ:

وعد الله المتقين بجزيل المثوبة، ومن ذلك وعدهم بغرف من فوقها غرف في الجنة، مصداقاً لقوله تعالى في الآية العشرين من سورة الزمر المثبت نصها آنفاً، والمتحدث عنهم فيها هم الذين خوطبوا في الآيات السالفة من السورة نفسها بقوله تعالى:{..يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ}[1] وبقوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ...}[2]

فالمتقون لهم درجات عالية في جنات النعيم، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم؛ أي لهم علالي بعضها فوق بعض، {مبنية} بناء المنازل المبنية، المؤسسة على الأرض في الرصانة والإحكام، {تجري من تحتها} من تحت تلك الغرف، {الأنهار} من غير تفاوت بين العلو والسفل.[3]

وقد ذكر القرآن الكريم الغرف في سياق بيان المثوبة الآخروية في أربع آيات قرآنية، منها الآية سالفة الذكر من سورة الزمر، وفي ثلاث آيات أخر، ففي سورة الفرقان يقول تعالى:{أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً}[4] وفي سورة العنكبوت يقول جل ذكره:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[5] وفي سورة سبأ، يقول سبحانه:{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ}[6]

فالغرف الموعودة لأهل الجنة في الآخرة، هي غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وهم فيها آمنون، والغرفة في اللغة العلية، وكل بناء عال فهو غرفة، والمراد به الدرجات العالية، وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة، فالمعنى يجزون الجنة، وهي

1. الزمر:16.
2. الزمر:10.
3. تفسير أبي السعود:7/ 249.
4. الفرقان:75.
5. العنكبوت:58.
6. سبأ:37.

جنـات كثـيرة.[1] وذكـرت الغـرف بصيغـة الجمـع في ثـلاث آيـات، وبصيغـة المفـرد في آيـة الفرقـان، يقـول الشـنقيطي: الظاهـر أن المـراد بالغرفـة في هـذه الآيـة الكريمـة جنسـها.[2]

وبالنسـبة إلى قولـه تعـالى في وصـف الغرف:{مَّبْنِيَّـةٌ} يبـين الـرازي أن المـنزل إذا بـني عـلى مـنزل آخـر تحتـه كان الفوقـاني أضعـف بنـاء مـن التحتـاني، فقوله:{مَّبْنِيَّـةٌ} معنـاه: وإن كان فـوق غـيره لكنـه في القـوة والشـدة مسـاو للمـنزل الأسـفل، والحاصـل أن المـنزل الفوقـاني والتحتـاني حصـل في كل واحـد منهمـا فضيلـة، ومنقصـة، أمـا الفوقـاني ففضيلتـه العلـو والارتفـاع، ونقصانـه الرخـاوة والسـخافة، وأمـا التحتـاني فبالضـد منـه، أمـا منـازل الجنـة، فإنهـا تكـون مسـتجمعة لـكل الفضائـل، وهـي عاليـة مرتفعـة، وتكـون في غايـة القـوة والشـدة.[3]

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً:

مـن بـين الوعـود الربانيـة للمتقـين، أن يسـاقوا إلى الجنـة زمـراً، مصداقـاً لقولـه تعالى:{وَسِـيقَ الَّذِيـنَ اتَّقَـوْا رَبَّهُـمْ إِلَى الْجَنَّـةِ زُمَـراً حَـتَّى إِذَا جَاءُوهَـا وَفُتِحَـتْ أَبْوَابُهَـا وَقَـالَ لَهُـمْ خَزَنَتُهَـا سَـلَامٌ عَلَيْكُـمْ طِبْتُـمْ فَادْخُلُوهَـا خَالِدِيـنَ}[4]، فالمتقـون حسـب الآيـة الكريمـة يسـاقون إلى الجنـة الموعـودة زمـراً، أي جماعـة بعـد جماعـة، المقربـون ثـم الأبـرار، ثـم الذيـن يلونهـم، ثـم الذيـن يلونهـم، كل طائفـة مـع مـن يناسـبهم، الأنبيـاء مـع الأنبيـاء، والصديقـون مـع أشـكالهم، والشـهداء مـع أضرابهـم، والعلمـاء مـع أقرانهـم، وكل صنـف مـع صنـف، كل زمـرة تناسـب بعضهـا بعضـاً.[5]

وحـول أن السـوق في أهـل النـار للعـذاب معقـول؛ لأنهـم لمـا أمـروا بالذهـاب إلى موضـع العـذاب والشـقاوة لا بـدّ وأن يسـاقوا إليـه، وأمـا أهـل الثـواب، فـإذا أمـروا بالذهـاب إلى موضـع

1. التفسير الكبير:24/ 101.
2. أضواء البيان:6/ 81.
3. التفسير الكبير:26/ 229.
4. الزمر:73.
5. تفسير ابن كثير:4/ 66.

الكرامة والراحة والسعادة، فأي حاجة فيه إلى السوق؟ يجيب الرازي عن هذا التساؤل من وجوه، منها: أن أهل الجنة وأهل النار يساقون، إلا أن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسير إذ سيق إلى الحبس والقيد، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك، فشتان ما بين السوقين.[*]

فهذه وقفة أخرى عند بعض مناحي الأمر الرباني بالتقوى، والمثوبة الموعودة من الله عليها، عسى أن ييسر الله الوقوف عند مزيد من ثمار التقوى،وأن يشرح سبحانه صدورنا لهداه، ويلهمنا تقواه، لننال حبه ورضاه، وحب نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

* التفسير الكبير:27 /20.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم

أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة التاسعة

يعد الله المتقين بعقبى الدار، فيقول عز وجل:{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ}[1]

في سياق بيان فضل التقوى والمثوبة عليها، وقفت الحلقة السابقة عند إسكان المتقين غرفاً من فوقها غرف في الجنة، تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وهم فيها آمنون، وأنهم يساقون إليها زمراً، أي جماعة بعد جماعة، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان، وأن تفتح لهم أبوابها فتح إكرام.

عقبى الذين اتقوا:

لفظ {عقبى} في القرآن الكريم لم يرد إلا خمس مرات، وذلك في أربع آيات من سورة الرعد، منها الآية 35 المثبت نصها أعلاه، والتي تكرر فيها ذكر لفظ عقبى مرتين، إحداهما أضيف إليها الذين اتقوا، والأخرى أضيف إليها الكافرون، يقول الرازي: بأن {عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ} يعني عاقبة أهل التقوى هي الجنة، وعاقبة الكافرين النار، وحاصل الكلام من هذه الآية أن ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب، موصوفة بصفة الدوام.[2]

أما الآيات الثلاث الأخرى، فقد اشتركت بختم كل منها بعبارة (عُقْبَى الدَّارِ) مع اختصاص كل منها بصياغة معينة، ففي الآية 22 لخص جزاء المصلين والمنفقين سراً وعلانية، والذين يَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، بأن لهم عقبى الدار، فقال عز وجل: {وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ

1. الرعد:35.
2. التفسير الكبير: 19/ 47.

لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [1]، ولا ريب أن الصفات المذكورة هي من صفات المتقين، وقيل: إن هذه الآية نزلت في الأنصار، ثم هي عامة في كل مؤمن اتصف بهذه الصفات، و{عُقْبَى الدَّارِ} يعني الجنة، ويحتمل أن يريد بالدار الآخرة، وأضاف العقبى إليها؛ لأنها فيها، ويحتمل أن يريد بالدار الدنيا، وأضاف العقبى إليها؛ لأنها عاقبتها.[2]

ويرجح الرازي أن تكون الجنة هي المرادة هنا؛ لأن الجنة هي التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا، ومرجع أهلها، قال الواحدي: العقبى كالعاقبة، والمعنى أولئك لهم أن تعقب أعمالهم الدار، التي هي الجنة.[3]

وفي الآية 24 من سورة الرعد، أشير إلى حسن جزاء المتقين، بمدح عقبى الدار التي فازوا بها، فقال تعالى: {سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[4]

وفي الآية 42 من سورة الرعد، ذكرت عقبى الدار في سياق تبكيت الكافرين، فقال عز وجل: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}[5]

يرى الزمخشري أن المراد بالدار هنا هي الدنيا، وعاقبتها وعُقباها أن يُختم للعبد بالرحمة والرضوان، وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت.[6]

العاقبة للتقوى:

بخلاف لفظ {عُقبى} فقد ذُكر لفظ {عاقبة} إحدى وثلاثين مرة في القرآن الكريم، منها ثلاث مرات أضيف إليها المتقون، ومرة أضيفت إليها التقوى، ومرة أضيفت إليها الدار، فقال تعالى: {...إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[7]

وقال عز وجل: {...فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}[8]

1. الرعد:22.
2. التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 134.
3. التفسير الكبير: 19/ 35.
4. الرعد:24.
5. الرعد:42.
6. الكشاف: 3 /415 - 416.
7. الأعراف: 128.
8. هود: 49.

وقال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[1]

وقال جل شأنه: {...وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}[2]

وقال عز وجل: {...فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تكونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}[3]

والجدول الآتي يظهر توزيع ورود لفظ العاقبة في القرآن الكريم، حسب ما أضيف إليه في مرات ذكره الإحدى والثلاثين:

تسلسل ذكر العاقبة	المضاف إليه	السورة	الآية	تسلسل ذكر العاقبة	المضاف إليه	السورة	الآية
1	لله	الحج	41	16	المجرمين	الأعراف	84
2		لقمان	22	17		النمل	69
3	المتقين	الأعراف	128	18	الظالمين	يونس	39
4		هود	49	19		القصص	40
5		القصص	83	20	المنذَرين	يونس	73
6	للتقوى	طه	132	21		الصافات	73
7	الدار	الأنعام	135	22	مكرهم	النمل	51
8		القصص	37	23	الذين أساؤوا	الروم	10
9	المكذبين	آل عمران	137	24	الذين من قبلهم	يوسف	109
10		الأنعام	11	25		الروم	9
11		النحل	36	26		فاطر	44
12		الزخرف	25	27		غافر	21
13	المفسدين	الأعراف	86	28		غافر	82
14		الأعراف	103	29		محمد	10
15		النمل	14	30	الذين من قبلُ	الروم	42
				31	أمرها خسرا	الطلاق	9

المتدبر في توزيع ذكر لفظ العاقبة في القرآن الكريم، يلحظ أن معظم مواضع ذكره، أضيف إليه الأشرار، أو أمور مذمومة، فأضيف إليه: المكذبون أربع مرات، والمفسدون ثلاث، والمجرمون مرتان، ومثلهما الظالمون، وكذلك المنذَرون، ومكرهم مرة واحدة، وأخرى الذين أساؤوا، وذكر في مجال لفت الأنظار للذين من قبل ومن قبلهم سبع مرات، واحدة منها {الذين

1. القصص:83.
2. طه:132.
3. الأنعام:135.

مـن قبـل}[1]، والسـت الباقيـة {الذيـن مـن قبلهـم}، أضيـف إليـه مـرة واحـدة كذلـك {أمرهـا خـسرا}[2]

بينمـا لـم يضـف إلى لفـظ العاقبـة مـن أمـور الخـير إلا في ثمـاني مـرات مـن الإحـدى والثلاثين، أضيـف إليـه في واحـدة منهـا لفـظ الجلالـة (اللـه)، والمتقـون ثـلاث مـرات، والتقـوى مـرة واحــدة، ومرتــان الــدار.

بخـلاف لفـظ العقـبى، الـذي كانـت الإضافـة الأغلـب إليـه للتقـوى والمتقـين، ولـم يضـف إليــه أهــل النــار إلا مــرة واحــدة مــن خمــس.

سـائلين اللـه أن يـشرح صدورنـا لهـداه، ويلهمنـا تقـواه، لننـال حبـه ورضـاه، وحـب نبيـه محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

1. الروم: 42.
2. الطلاق: 9.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة العاشرة

وعد الله الملتزمين بتقواه، بأن ييسرهم لليسرى، فقال عز وجل: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}(*)

تعرضت الحلقة السابقة للحديث عن بعض الوعود الربانية للمتقين، التي منها وعدهم بالعقبى، مع ذكر الآيات القرآنية الأربع التي استخدم فيها لفظ العقبى خمس مرات، وكلها في سورة الرعد، منها الآية 35 التي تكرر فيها ذكر لفظ عقبى مرتين، إحداهما أضيف إليها الذين اتقوا، والأخرى أضيف إليها الكافرون، مع الإشارة إلى الجنة الموعودة للمتقين، والنار الموعودة للكافرين، والآيات الثلاث الأخرى، اشتركت بختم كل منها بعبارة (عقبى الدار) مع اختصاص كل منها بصياغة معينة، وتم التذكير بعدد مواضع ذكر العاقبة في القرآن الكريم، والتي ذكر لفظها في إحدى وثلاثين آية كريمة، منها ثلاث آيات أضيف فيها المتقون إلى لفظ العقبى، ومرة أخرى أضيف إليه لفظ التقوى.

تيسير المتقين لليسرى:

من بين الوعود الربانية للمتقين، أن ييسرهم الله لليسرى، حسب الوعد الرباني لهم في الآيات أعلاه من سورة الليل، جاء في أضواء البيان، أنه أطلق {أعطى} ليعم كل عطاء من ماله وجاهه وجهده، حتى الكلمة الطيبة، بل حتى طلاقة الوجه، والحسنى قيل المجازاة على الأعمال، وقيل: للخلف على الإنفاق، وقيل: لا إله إلاَّ اللّه، وقيل: الجنة، والذي يشهد

* الليل:5 - 7.

لـه القـرآن هـو الأخـير، لقولـه تعـالى: {لِّلَّذِيـنَ أَحْسَـنُواْ الْحُسْـنَى وَزِيَـادَةٌ}[1]، فقالـوا: الحسـنى هـي الجنـة، والزيـادة النظـر إلى وجهـه الكريـم، وهـذا المعـنى يشـمل كل المعـاني، لأنهـا أحسـن خلـف لـكل مـا ينفـق العبـد، وخـير وأحسـن مجـازاة عـلى أي عمـل، مهمـا كان، ولا يتوصـل إليهـا إلا بـلا إلـه إلا اللَّـه، وقولـه: {فَسَـنُيَسِّرُهُ لِلْيُـسْرَى}، وقولـه: {فَسَـنُيَسِّرُهُ لِلْعُـسْرَى} بعـد ذكـر {أعطـى واتقـى} في الأولى، و{بخـل واسـتغنى} في الثانيـة، قيـل: هـو دلالـة عـلى أن فعـل الطاعـة ييسر إلى طاعـة أخـرى، وفعـل المعصيـة يدفـع إلى معصيـة أخـرى.[2]

نجاة المتقين:

النجـاة مـن عـذاب الآخـرة، جـزء مهـم ورئيـس مـن الثـواب، مصداقـاً لقولـه عـز وجـل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَـةُ الْمَـوْتِ وَإِنَّمَـا تُوَفَّـوْنَ أُجُورَكُـمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فَمَـن زُحْـزِحَ عَـنِ النَّـارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّـةَ فَقَـدْ فَـازَ وَمَـا الحَيَـاةُ الدُّنْيَـا إِلاَّ مَتَـاعُ الغُـرُورِ}[3]

وعـن نجـاة المتقـين يـوم القيامـة، يقـول عـز وجـل: {وَيُنَجِّـي اللَّـهُ الَّذِيـنَ اتَّقَـوا بِمَفَازَتِهِـمْ لَا يَمَسُّـهُمُ السُّـوءُ وَلَا هُـمْ يَحْزَنُـونَ}[4] أي ينجـي اللـه المتقـين بمفازتهـم [5]، و{بمفازتهـم} أصلـه مـن الفـوز، والتقديـر بسـبب فوزهـم، وقيـل: معنـاه بفضائلهـم.[6]

وقـد وعـد اللـه المتقـين بالنجـاة مـن النـار، رغـم لـزوم مرورهـم عـلى الـصراط، فقـال تعـالى: {وَإِن منكُـمْ إِلَّا وَارِدُهَـا كَانَ عَـلَى رَبِّـكَ حَتْمـاً مَّقْضِيّـاً* ثُـمَّ نُنَجِّـي الَّذِيـنَ اتَّقَـوا ونَـذَرُ الظَّالِمِـينَ فِيهَـا جِثِيّـاً}[7]

جـاء في تفسـير ابـن كثـير، أن قولـه: {وَإِن مِّنكُـمْ إِلَّا وَارِدُهَـا} هـو الممـر عليهـا، وقيـل: ورود المسـلمين المـرور عـلى الجـسر، وورود المشركـين أن يدخلوهـا.

---

1. يونس: 26.
2. أضواء البيان: 8 /547 - 548
3. آل عمران:185.
4. الزمر:61.
5. التفسير الكبير: 27/ 11.
6. التسهيل لعلوم التنزيل: 3/ 198.
7. مريم: 71 - 72.

وعـن ابـن مسـعود في قولـه:{كَانَ عَـلَى رَبِّـكَ حَتْمـاً مَّقْضِيّـاً} قـال: قسـماً واجبـاً، وقـال مجاهـد: حتماً قضاء، وكـذا قـال ابـن جريـج. وقولـه: {ثُـمَّ نُنَجِّـي الَّذِيـنَ اتَّقَـوا} أي إذا مـر الخلائـق كلهـم عـلى النـار، وسـقط فيهـا مـن سـقط مـن الكفـار والعصـاة ذوي المعـاصي بحسـبهم، نجـى اللـه تعـالى المؤمنـين المتقـين منهـا بحسـب أعمالهـم، فجوازهـم عـلى الـصراط، وسرعتهـم بقـدر أعمالهـم الـتي كانـت في الدنيـا.[1]

وعـن أُمّ مُبَـشِّرٍ، أنهـا سَـمِعَتْ النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، يقـول عِنْـدَ حَفْصَـةَ: (لَا يَدْخُـلُ النَّـارَ إن شَـاءَ اللـه مـن أَصْحَـابِ الشَّـجَرَةِ أَحَـدٌ، الَّذِيـنَ بَايَعُـوا تَحْتَهَـا، قالـت: بَـلَى يـا رَسُـولَ اللَّـهِ، فَانْتَهَرَهَـا، فقالـت حَفْصَـةُ: {وَإِنْ مِنْكُـمْ إلا وَارِدُهَـا}، فقـال النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم: قـد قـال اللـه عـز وجـل: {ثُـمَّ نُنَجِّـي الَّذِيـنَ اتَّقَـوْا وَنَـذَرُ الظَّالِمِـينَ فيهـا جِثِيًّـا}).[2]

وعـن أبي هُرَيْـرَةَ، رضي اللـه عنـه، عـن النـبي، صـلى اللـه عليـه وسـلم، قـال: (لَا يَمُـوتُ لِمُسْـلِمٍ ثَلَاثَـةٌ مـن الْوَلَـدِ فَيَلِـجَ النَّـارَ إلا تَحِلَّـةَ الْقَسَـمِ، قال أبـو عَبْـد اللَّـهِ: {وَإِنْ مِنْكُـمْ إلا وَارِدُهَا}[3]

تفريج كرب المتقين:

تفريـج الكـرب، والخـروج مـن الأزمـات بسـلام وأمـان، نعمـة يمنهـا اللـه عـلى عبـاده المتقـين، بفضلـه سـبحانه وعظمتـه وقدرتـه وإرادتـه، حيـث وعـد سـبحانه المتقـين بـأن يجعـل لهـم مـن الضيـق مخرجـاً، فقـال تعـالى: {...وَمَـن يَتَّـقِ اللَّـهَ يَجْعَـل لـهُ مَخْرَجـاً* وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِـبُ وَمَـن يَتَـوَكَّلْ عَـلَى اللَّـهِ فَهُـوَ حَسْـبُهُ إِنَّ اللَّـهَ بَالِـغُ أَمْـرِهِ قَـدْ جَعَـلَ اللَّـهُ لِـكُلِّ شَيْءٍ قَـدْراً}[4]، فاللـه يطمـئن المتقـين إلى تخليصهـم مـن الأزمـات الـتي تعترضهـم، وإلى الإنعـام عليهـم بالـرزق مـن حيـث لا يحتسـبون، ووعـد سـبحانه المتقـين في الآيتـين التاليـتن بثوابـين آخريـن، فوعدهـم بـأن

1. تفسير ابن كثير: 3 /134 - 135.
2. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان...
3. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب فضل من مات له ولد فاحتسب...
4. الطلاق: 2 - 3.

يجعل لهم من أمرهم يسراً، وأن يعظم لهم أجراً، فقال عز وجل: {...وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً}[1]، وقال تعالى: {...وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً} [2]

فهذه وقفة أخرى عند بعض مناحي الأمر الرباني بالتقوى، والمثوبة الموعودة من الله عليها، عسى أن ييسر الله الوقوف عند مزيد من ثمار التقوى، وأن يشرح سبحانه صدورنا لهداه، ويلهمنا تقواه، لننال حبه ورضاه، وحب نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

1. الطلاق: 4.
2. الطلاق:5.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة الحادية عشرة

يأمر الله بالتقوى، مبيناً أثرها في تحصيل المعارف والعلوم، فيقول عز وجل: {...وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[1]

تم التعرض في الحلقة العاشرة السابقة إلى بعض الوعود الربانية للمتقين، والتي منها أن ييسرهم الله لليسرى، حسب الوعد الرباني لهم الوارد في آيات سورة الليل، وتم الوقوف كذلك عند الإشادة بمنازل المتقين في الآخرة، التي تكون نجاتهم فيها من العذاب، جزء مهم ورئيس من ثوابهم، فينجيهم الله من النار بمفازتهم، أي بسبب فوزهم، وقيل بفضائلهم.

وتفريج الكرب، والخروج من الأزمات بسلام وأمان، نعمة يمنها الله على عباده المتقين، بفضله سبحانه وعظمته وقدرته وإرادته، حيث وعد سبحانه المتقين بأن يجعل لهم من الضيق مخرجاً، وطمأنهم إلى تخليصهم من الأزمات التي تعترضهم، والإنعام عليهم بالرزق من حيث لا يحتسبون، ووعدهم سبحانه كذلك بأن يجعل لهم من أمرهم يسراً، وأن يعظم لهم أجراً.

اتقوا الله ويعلمكم الله:

مكافأة المتقين صورها وأنواعها كثيرة، من ذلك وهبهم العلم وتوفيقهم فيه، مصداقاً لقوله تعالى المثبت نصه أعلاه من سورة البقرة، يقول الرازي: والمعنى أنه يعلمكم ما يكون إرشاداً واحتياطاً في أمر الدنيا، كما يعلمكم ما يكون إرشاداً في أمر الدين، {وَاللَّهُ بِكُلّ شَيْء عَلِيمٌ} إشارة إلى كونه سبحانه وتعالى عالماً مصالح الدنيا والآخرة جميعها.[2]

---

1. البقرة: 282.
2. التفسير الكبير:7/ 104.

يفسر القرطبي المراد بتعليم الله من اتقاه، بأنه وعد من الله تعالى، بأن من اتقاه علمه، أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقاناً، أي فيصلاً يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[1] والله أعلم.[2]

جاء في التسهيل لعلوم التنزيل أن {ويعلمكم الله} إخبار على وجه الامتنان، وقيل معناه الوعد بأن من اتقى علمه الله وألهمه، وهذا المعنى صحيح، ولكن لفظ الآية لا يعطيه، لأنه لو كان كذلك لجزم{يعلمكم} في جواب {اتقوا}.[3]

أما الطبري، فيقول: بأن{وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} يعني يبين لكم الواجب لكم وعليكم، فاعملوا به، وأن {والله بكل شيء عليم} يعني من أعمالكم وغيرها، يحصيها عليكم ليجازيكم.[4]

الله مع المتقين:

من ثمار التقوى التي ينعم بها المتقون، نيلهم المعية الربانية، حيث يقول سبحانه: {...وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[5]

يفسر الرازي قوله تعالى: {أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}؛ أي بالمعونة والنصرة والحفظ والعلم، وهذا من أقوى الدلائل على أنه ليس بجسم، ولا في مكان، إذ لو كان جسماً لكان في مكان معين، فكان إما أن يكون مع أحد منهم، ولم يكن مع الآخر، أو يكون مع كل واحد من المؤمنين جزء من أجزائه، وبعض من أبعاضه، تعالى الله عنه علواً كبيراً.[6]

وفي موضع آخر من التفسير الكبير: يريد أن الله مع أوليائه الذين يخشونه في أداء

1. الأنفال:29.
2. تفسير القرطبي: 3 /406.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 1 /97.
4. تفسير الطبري: 3/ 138.
5. البقرة:194.
6. التفسير الكبير: 5 /115.

الطاعـات، والاجتنـاب عـن المحرمـات، قـال الزجـاج: تأويلـه أنـه ضامـن لهـم النـصر.[1]

وفي تفسـير أبي السـعود: أي معكـم بالنـصر والإمـداد فيمـا تباشرونـه مـن القتـال، وإنمـا وضـع المظهـر موضعـه، مدحـاً لهـم بالتقـوى، وحثـاً للقاصريـن عليـه، وإيذانـاً بأنـه المـدار في النـصر، وقيـل: هـي بشـارة وضمـان لهـم بالنـصرة بسـبب تقواهـم.[2]

ويقول عز وجل:{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا والَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}[3]

جـاء في أضـواء البيـان، أن اللـه جـل وعـلا في هـذه الآيـة الكريمـة يبـين أنـه مـع عبـاده المتقـين المحسـنين، وهـذه المعيـة بعبـاده المؤمنـين هـي بالإعانـة والنَّـصر والتوفيـق، وكـرر هـذا المعـنى في مواضـع أخـر: منهـا قولـه تعـالى: {قَـالَ لَا تَخَافَـا إِنَّـنِي مَعَكُمَـا أَسْـمَعُ وَأَرَى}[4]

وأمـا المعيـة العامـة للخلـق جميعـاً، فهـي بالإحاطـة التامـة، والعلـم ونفـوذ القـدرة، وكـون الجميـع في قبضتـه جـل وعـلا؛ فالكائنـات في يـده جـل وعـلا أصغـر مـن حبّـة خـردل، وهـذه هـي المذكـورة أيضـاً في آيـات كثـيرة، منهـا قولـه تعـالى: {...وَهُـوَ مَعَكُـمْ أَيْـنَ مَـا كُنتُـمْ ...}[5]، فهـو جـل وعـلا مسـتو عـلى عرشـه، كمـا قـال، عـلى الكيفيـة اللائقـة بكمالـه وجلالـه، وهـو محيـط بخلقـه كلهـم في قبضـة يـده، لا يعـزب عنـه مثقـال ذرة في الأرض ولا في السـماء، ولا أصغـر مـن ذلـك ولا أكـبر إلا في كتـاب مبـين.[6]

يقـول الـرازي: معيتـه بالرحمـة والفضـل والرتبـة، وقولـه: {الَّذِيـنَ اتَّقَـوْاْ} إشـارة إلى التعظيـم لأمـر اللـه تعـالى.[7]

ويقـول أبـو السـعود: والمـراد بالمعيـة الولايـة الدائمـة، الـتي لا تحـوم حـول صاحبهـا

1. التفسير الكبير: 16/ 45.
2. تفسير أبي السعود: 4 /64.
3. النحل: 128.
4. طه:46.
5. الحديد:4.
6. أضواء البيان: 2 /468 - 469.
7. التفسير الكبير: 20 /114.

شـائبة شيء مـن الجـزع والحـزن وضيـق الصـدر، ومـا يشـعر بـه دخـول كلمـة (مـع) مـن متبوعيـة المتقـين، إنمـا هـي مـن حيـث إنهـم المبـاشرون للتقـوى.[*]

فهـذه وقفـة أخـرى عنـد بعـض مناحـي الأمـر الربـاني بالتقـوى، والمثوبـة الموعـودة مـن اللـه عليهـا، عـسى أن ييـسر اللـه الوقـوف عنـد مزيـد مـن ثمـار التقـوى، وأن يـشرح سـبحانه صدورنا لهـداه، ويلهمنـا تقـواه، لننـال حبـه ورضـاه، وحـب نبيـه محمـد، صـلى اللـه عليـه وسـلم، وعـلى آلـه الطاهريـن، وأزواجـه أمهـات المؤمنـين، وأصحابـه الغـر الميامـين، ومـن تبعـه بإحسـان إلى يـوم الديـن.

* تفسير أبي السعود: 5 /153.

الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم
أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى

الحلقة الثانية عشرة والأخيرة

يقول منزل القرآن سبحانه في محكم التنزيل: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكفُرُوا فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً}[1]

تعرضت الحلقة السابقة للحديث عن مكافأة المتقين بصورها وأنواعها الكثيرة، ومن ذلك وهبهم العلم وتوفيقهم فيه، ومن ثمار التقوى التي ينعم بها المتقون، نيلهم المعية الربانية، وذلك بالمعونة والنصرة والحفظ والعلم، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر، وأما المعية العامة للخلق جميعهم، فهي بالإحاطة التامة، والعلم ونفوذ القدرة، وكون الجميع في قبضته جل وعلا؛ وهذه هي المذكورة أيضاً في آيات كثيرة.

الأمر العام بالتقوى والتوصية بها:

أمر سبحانه خلقه بتقواه، كما في الآية القرآنية الكريمة 131 من سورة النساء، والمثبت نصها أعلاه، وتكرر الأمر بالتقوى في آيات أخرى، كقوله تعالى:{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [2]، وقوله سبحانه: {...فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً} [3]

ولم يقف الأمر الرباني بالتقوى عند مجالات دون أخرى، فالله أمر بالتقوى في ثنايا أطول آية قرآنية، والمعروفة بآية الدين، فقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ

1. النساء:131.
2. التغابن:16.
3. الطلاق:10.

اللّـهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّـذِي عَلَيْـهِ الْحَـقُّ وَلْيَتَّـقِ اللّـهَ رَبَّـهُ وَلاَ يَبْخَـسْ مِنْـهُ شَـيْئاً ...}[1]، وتكـرر الأمـر بالتقـوى في الآيـة التاليـة ذات الصلـة بمضمـون سـابقتها، فقـال تعـالى:{وَإِن كُنتُـمْ عَـلَى سَـفَرٍ وَلَـمْ تَجِـدُواْ كَاتِباً فَرِهَـانٌ مَّقْبُوضَـةٌ فَـإِنْ أَمِـنَ بَعْضُكُـم بَعْضاً فَلْيُـؤَدِّ الَّـذِي اؤْتُمِـنَ أَمَانَتَـهُ وَلْيَتَّـقِ اللّـهَ رَبَّـهُ وَلاَ تَكْتُمُـواْ الشَّـهَادَةَ وَمَـن يَكْتُمْهَـا فَإِنَّـهُ آثِـمٌ قَلْبُـهُ وَاللّـهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ عَلِيـمٌ}[2]

فضائل التقوى وبواعثها ودرجاتها:

للتقـوى فضائـل وبواعـث ودرجـات، وقـف عنـد مجمـل ذلـك صاحـب التسـهيل لعلـوم التنزيـل، ضمـن فصـول ثلاثـة، وذلـك عـلى النحـو الآتي:

فضائـل التقـوى المسـتنبطة مـن القـرآن، وهـي خمـس عـشرة، الهـدى، كقولـه: {هـدى للمتقين}(البقـرة:2) والنـصرة: {إن اللـه مـع الذيـن اتقوا}(النحـل:128) والولايـة: {واللـه ولي المتقـين} (الجاثيـة:19) والمحبـة: {إن اللـه يحـب المتقين}(التوبـة:4) والمغفـرة: {إن تتقـوا اللـه يجعـل لكـم فرقانا}(الأنفـال:29) والمخـرج مـن الغـم، والـرزق مـن حيـث لا يحتسـب: {ومـن يتـق اللـه يجعـل له مخرجا}(الطـلاق:2)، وتيسـير الأمـور: {ومـن يتـق اللـه يجعـل لـه مـن أمـره يسرا}(الطـلاق:4) وغفـران الذنـوب، وإعظـام الأجـور: {ومـن يتـق اللـه يكفـر عنـه سـيئاته ويعظـم لـه أجرا}(الطـلاق:5) وتقبـل الأعمـال: {إنمـا يتقبـل اللـه مـن المتقين}(المائـدة:27) والفـلاح: {واتقـوا اللـه لعلكـم تفلحـون} (البقـرة:189)، والبـشرى: {لهـم البـشرى في الحيـاة الدنيـا وفي الآخـرة} (يونـس:64) ودخـول الجنـة: {إن للمتقـين عنـد ربهـم جنـات النعيم}(القلـم:34) والنجـاة مـن النـار: {ثـم ننجـي الذيـن اتقـوا} (مريـم:72) أمـا البواعـث عـلى التقـوى، فعـشرة: خـوف العقـاب الأخـروي، وخـوف الدنيـوي، ورجاء الثـواب الدنيـوي، ورجـاء الثـواب الأخـروي، وخـوف الحسـاب، والحيـاء مـن نظـر اللـه، وهـو مقـام المراقبـة، والشـكر عـلى نعمـه بطاعتـه والعلـم، لقولـه: {إنمـا يخـشى اللـه مـن عبـاده العلمـاء}[3] وتعظيـم جـلال اللـه، وهـو مقـام الهيبـة، وصـدق المحبـة لقـول القائـل:

تعـصي الإلـه وأنـت تظهـر حبـه ... هـذا لعمـري في القيـاس بديـع
لـو كان حبـك صادقـاً لأطعتـه ... إن المحـب لمـن يحـب مطيـع

ولله در القائل:

1. البقرة:282.
2. البقرة:283.
3. فاطر:28.

قالت وقد سألت عن حال عاشقها للـه صفه ولا تنقص ولا تزد

فقلت لو كان يظن الموت من ظمإ وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

وبالنسبة إلى درجات التقوى، فهي خمس: أن يتقي العبد الكفر، وذلك مقام الإسلام، وأن يتقي المعاصي والحرمات، وهو مقام التوبة، وأن يتقي الشبهات، وهو مقام الورع، وأن يتقي المباحات، وهو مقام الزهد، وأن يتقي حضور غير الله على قلبه، وهو مقام المشاهدة.[1]

رجاء إمامة المتقين:

إمامة المتقين فضيلة يرجوها العقلاء، الذين يرجون أن تتحقق لهم هذه المكرمة، وفق ما تضمنه قوله عز وجل: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً}[2]، وفي التسهيل لعلوم التنزيل، أن قوله تعالى: {واجعلنا للمتقين إماماً} أي قدوة يقتدي بنا المتقون، فإمام مفرد يراد به الجنس، وقيل هو جمع (آم) أي متبع.[3]

وفي صحيح البخاري، بَاب الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رسول اللَّهِ، صلى الله عليه وسلم، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} قال: أيمة نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا من بَعْدَنَا.[4]

فالتقوى يتمنى التوفيق إليها، والعمل بمقتضاها كل مؤمن، رجاء أن ينال بمعيتها الدرجات العلى عند ربه، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وبهذه الوقفة نختم الحديث عن بعض مناحي الأمر الرباني بالتقوى، سائلين الله العلي القدير أن يشرح صدورنا لهداه، وأن يلهمنا تقواه، لننال حبه سبحانه ورضاه، وحب نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

---

1. التسهيل لعلوم التنزيل، 1/ 35 - 36.
2. الفرقان:74.
3. التسهيل لعلوم التنزيل: 3 /82.
4. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الفهرس

تقديم		
الفصل الأول/ عبادات الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	يربط أجر الصائم بمواعثه	6
.2	يوثق الصلة بين الصوم والسلوك	9
.3	يضبط أوقات الصائمين	12
.4	يشترط الإخلاص لنيل ثواب قيام ليلة القدر العظيمة	15
.5	يبين فضل إتباع رمضان بصيام ست من شوال	19
.6	ضحى بكبشين أملحين أقرنين	22
.7	يشدد على منع الاعتداء على الأموات وقبورهم	26
الفصل الثاني/علوم قرآنية الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	أنزل الله على قلبه القرآن بلسان عربي مبين - الحلقة الأولى	31
.2	أنزل الله على قلبه القرآن بلسان عربي مبين - الحلقة الثانية	34
.3	أنزل الله على قلبه القرآن بلسـان عربي مبين - الحلقة الثالثة والأخيرة	37
الفصل الثالث/ سيرة وشمائل الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم		
.1	مسراه أمانة في أعناق المؤمنين برسالته	41
.2	نصره الله يوم الفرقان في السابع عشر من رمضان	45
.3	التذكير بأسمائه في ذكرى مولده - الحلقة الأولى	48
.4	التذكير بأسمائه في ذكرى مولده - الحلقة الثانية والأخيرة	52
.5	يحسر ثوبه ليصيبه المطر - الحلقة الأولى	56
.6	يحسر ثوبه ليصيبه المطر - الحلقة الثانية	59

.7	يحسر ثوبه ليصيبه المطر - الحلقة الثالثة	63
.8	يحسر ثوبه ليصيبه المطر - الحلقة الرابعة والأخيرة	66
.9	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الأولى	69
.10	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الثانية	72
.11	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الثالثة	75
.12	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الرابعة	79
.13	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة الخامسة	82
.14	وتحريم التقدم بين يديه - الحلقة السادسة والأخيرة	85
	الفصل الرابع/ ديات وجنايات **الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم**	
.1	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الأولى	89
.2	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الثانية	92
.3	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الثالثة	95
.4	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الرابعة	98
.5	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة الخامسة	102
.6	يحذر من اقتراف جرائم القتل - الحلقة السادسة والأخيرة	105
.7	يحذر من الوأد الخفي - الحلقة الأولى	108
.8	يحذر من الوأد الخفي - الحلقة الثانية والأخيرة	111
	الفصل الخامس/سياسة شرعية **الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم**	
.1	يرسي مبادئ احترام حقوق الإنسان حتى في الحروب	116
.2	يحذر الأمراء والمسؤولين من الانحراف عن الجادة - الحلقة الأولى	119
.3	يحذر الأمراء والمسؤولين من الانحراف عن الجادة - الحلقة الثانية	122

.4	يحـذر الأمـراء والمسـؤولين مـن الانحـراف عـن الجـادة - الحلقـة الثالثـة والأخيرة	125
	الفصل السادس/ أخلاق وقيم الرسول الأسوة، محمد، صلى الله عليه وسلم	
.1	يحذر من بهت الناس - الحلقة الأولى	129
.2	يحذر من بهت الناس - الحلقة الثانية	132
.3	يحذر من بهت الناس - الحلقة الثالثة	135
.4	يحذر من بهت الناس - الحلقة الرابعة	138
.5	يحذر من بهت الناس - الحلقة الخامسة	142
.6	يحذر من بهت الناس - الحلقة السادسة والأخيرة	146
.7	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الأولى	150
.8	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الثانية	153
.9	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الثالثة	156
.10	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الرابعة	159
.11	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى -الحلقة الخامسة	192
.12	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة السادسة	165
.13	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة السابعة	168
.14	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الثامنة	171
.15	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة التاسعة	175
.16	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة العاشرة	179
.17	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الحادية عشرة	183
.18	أمره الله والناس والمؤمنين بالتقوى - الحلقة الثانية عشرة والأخيرة	187